ليلة سقوط قلبي
رواية
ديانا المناصير

المقدمة.

تبدأُ الحكاية من مكانٍ لا يعرفه أحد، فجأةً تجد نفسك بطل حكاية، أو قصة، الصادق في رواية والكاذب في أخرى، هناك دائمًا زاوية نجهلها، كلًا منا يرى الأمر بعينه، مظلومين بعيوننا، وظالمين في عيون الآخرين.

هذه الرواية لا تمثل واقعًا، لم أعش تفاصيلها على أرض الواقع، لكنها ربما تمثل شخصًا يعيش في بقعةٍ ما على هذه الكرة الأرضية، لقد كانت فكرة تحيا في رأسي، ولأن الفكرة لا تموت، فقد تحولت إلى هذه الرواية.

عذرًا إن لامست بك جرحًا، فأحيته من جديد، وعذرًا إن تعاطفتُ مع من لا يستحق، لكنني أخبرتك مسبقًا كلًا منا يرى الحقيقة بعينه.

الرواية، وإن استحقت أن تسمى رواية، تخلو من الصفات الشكلية لأبطالها، وقد تعمدتُ ذلك، اترك لك اختيار البطل الذي تريد بالصورة التي تريدها، اطلق لمخيلتك العنان.

"إهداء"

للمنكسرة قلوبهم.

جبر الله كسر قلوبكم.

للذين تمنوا أن يكتب أحدًا عنهم حرفًا واحدًا يصف معاناتهم.

لقد كتبت لأجلكم ولأجلي.

أتمنى أن يكون القادم من أيامكم كما تمنيتم دائمًا.

أن تنالوا كل أمنية تختبئ في صدوركم.

أضحكوا، لقد أينعت أيامكم السعيدة، وحان موعد قِطافها.

ديانا المناصير.

الفصل الأول.

*"غفران"، هيا انهضي.

-ما الأمر يا أمي؟

*والدكِ بانتظاركِ.

-حسنًا.

نهضتُ من فراشي بكسل، وخرجتُ إلى أبي الذي كان ينتظرني في الغرفة الأخرى، جلستُ بالقرب منه وبصوتٍ نائم قلت:

-ما الأمر يا أبي؟

*أريدُ اصطحابكِ إلى مكانٍ ما، اذهبي واغتسلي.

-إلى أين؟

*ستعرفين حين نصل.

-حسنًا.

عدتُ إلى غرفتي لأرتدي ملابسي، كنتُ ارتدي ملابسي وأنا أتسأل ما الذي يحدث، وإلى أين نذهب؟ في بئر التساؤلات الذي سقطت فيه، أيقظني صوت أمي، وهي تردد بعلو صوتها:

-هيا يا "غفران"، سيغضب والدكِ إن تأخرنا.

أنا وأمي وأبي، إلى أين يا ترى.

ركبنا في السيارة، لأول مرة أشعر أنني أسير في طرقاتٍ لا أعرفها، كنت أفكر بالشيء الذي يخبئهُ لي أبي، كنتُ غارقة في القلق.

توقفت السيارة فجأة، وقال أبي بصوتٍ آمر:

*هيا وصلنا، سأنتظركم هنا.

وتابعت أمي:

*هيا يا "غفران".

-ماذا نفعل في المستشفى يا أمي؟

*لا شيء.

-إذن، لمَ نحنُ هنا؟

*ستعرفين الآن.

توقفت فجأة أمي عن السير، كانت تنظر إلى بابٍ مغلق تارة، وإليّ أخرى.

نظرتُ إلى المكان الذي نظرت فيه، كانت لافتة متوسطة الحجم، معلقة بجانب الباب كُتبَ عليها بالخط العريض "الدكتورة سهى خالد" وتحت هذا السطر، طبيبة نسائية.

نظرتُ إلى أمي، وسألتها بصوتٍ باكي:

-أمي؟

*دعينا نطمئن، والدكِ وأنا قلقان بشأنكِ.

-هل تمزحان معي؟

*أي مزاحٍ هذا يا بنت، ستدخلين الآن، الطبيبة بانتظاركِ، وأنا بغرفة الانتظار، لحين خروجكِ.

طرقت أمي الباب، وجاءنا من خلفهِ صوتٍ أنثوي، يقول:

*تفضل.

فتحت أمي الباب، وقالت لي:

*هيا يا "غفران"، كي لا نتأخر على والدكِ.

فعلتُ ما أمرتني بهِ والدتي، ودخلت.

لا أعرف كيف حملتني أقدامي، لأجلس أمام الطبيبة، كنتُ أنظر في أنحاء الغرفة بعدم فهم، مرة إلى الطبيبة التي كانت تنظر إلي بتفحص، وتارة إلى الغرفة البيضاء، ورداء الطبيبة الأبيض، لا أذكر أنني كنتُ أخاف اللون الأبيض إلا في هذه اللحظة، لم يكن ذاك اللون، الذي يدل على السلام، لقد كان مليئًا بالخوف والرعب.

قاطع شرودي صوت الطبيبة وهي تقول:

*اتصلت بي والدتكِ بالأمس، وأخبرتني عن تفاصيل قصتكِ، هل لديكِ ما تقوليه.

-لا، يمكنكِ أن تفعلي ما طلبهُ منكِ والدايّ.

*حسنًا.

ثم نادت إلى الممرضة، وقالت:

*ساعديها، لنبدأ الفحص.

حين خرجتُ من حجرة الطبيبة لأذهب إلى الأخرى، استوقفتني أمي بنظراتها، لقد كانت خائفة من شيءٍ أجهله، رغم هذا فعلتُ ما أرادته هي ووالدي.

بعد مرور نصف ساعة في غرفة الفحص، خرجت الطبيبة مبتسمة، وقالت:

*ما من شيء يدعو للقلق.

-أعرف.

*حسنًا هيا، والدتكِ تنتظر.

عدنا إلى الحجرة الأولى، وقبل أن تدخل أمي، طلبت منها الطبيبة أن تتحدث معي بشيء خاص.

*"غفران".

-نعم.

قدمت لي بطاقة، وقالت:

*اعرف جيدًا، ما الذي مررتي به، وإنها لتجربة قاسية، هذا رقم هاتف طبيب نفسي، يدعى الدكتور "مطر"، يمكنكِ أن تذهبي إليه.

أخذتُ منها البطاقة بعدم اهتمام، ووضعتها في حقيبتي، وقلت:

-هل يمكنني أن اخرج.

*يمكنكِ ذلك.

استدعت أمي بعد ذلك، وتحدثتا قليلًا، وخرجت أمي بعد دقائق، تملئ الابتسامة محياها، وقالت:

*اعرف ابنتي جيدًا.

-حقًا، ألهذا جئتِ بي إلى هنا؟

*تعرفين والدكِ، لقد كان قلقًا بشأنكِ.

وصلنا إلى السيارة، ابتسم أبي حين اقتربنا منه، بادلتهُ أمي الابتسامة بينما أنا فتحت باب المقعد الخلفي، ولم أنطق ببنت شفة، حتى وصلنا إلى البيت.

نزلتُ مسرعة إلى البيت، ودخلتُ إلى غرفتي وأغلقتها بالمفتاح.

انفجر كل شيء بداخلي، واخذتُ أبكي، شعرتُ حينها أنني لم أبكي منذ سنوات، ولا أعرف كيف داهمني النعاس، وغرقتُ في النوم.

استيقظتُ بعدها على صوت أمي وهي تطرق الباب وتناديني، نظرتُ إلى ساعتي، فكانت تشير إلى التاسعة مساءًا، لقد تجاوزت الخمس ساعات في النوم، كانت أمي تناديني، وتبكي، فأجبتها:

-أنا بخير، لا تقلقِ.

*افتحي لي الباب أرجوكِ.

-ليس الآن، سأخرج حالما أشعر أنني أصبحتُ بخير، أرجوك يا أمي، دعيني وشأني.

بعد كلمتي الأخيرة، توقفت أمي عن طرق الباب، نهضت من مكاني الذي كنتُ أنام فيه، ودخلت إلى دورة المياه لأحصل على حمامٍ دافئ.

لا تتوقف أمي عن طرق الباب، تواصل هذا الأمر كل صباح، تنتظر مني إجابة، فلا تحصل سوى على كلمتين "أنا بخير".

دون أن يطل وجهي عليها من خلف هذا الباب، أعلمُ أنها مثلي، تحملُ بداخلها الألم ذاته، يصلني صوتها كل مرة تبكي فيها بصلاتها وهي تناجي الله ألا يريها فيّ بأسًا يبكيها، تفطرُ قلبي دموعها، لطالما أردتُ أن اركض إليها وابكي معها في صلاتها، أن أبكي ذاك الشيء الذي يأبى الخروج من صدري.

استمع إلى صوت خطواتها وهي تضع الطعام على المنضدة في غرفتي، تمسح على رأسي، وتدعي الله ألا يطول هذا الأمر أكثر.

لا تكف عن التأفف كل مرة تأتي لتأخذ الطعام من غرفتي، فتجدهُ كما تركته، لم تمسسهُ يدًا، في مكانهِ، كما أنا في مكاني.

دخلت إحدى المرات، وجدتني أصلي، جلست على حافة السرير، تنتظر انتهائي، لم أشعر كثيرًا بوجودها، كنتُ أبكي في كل مرة اسجدُ فيها، كنت ادعو الله بقلبٍ منكسر كزجاجة كسرها أحدهم على قارعة الطريق، كنتُ

اسمع شهقاتها وهي تبكي لأجلي، لأجل ابنتها الصغيرة، التي لم تعتد على الألم بعد.

فرغتُ من صلاتي، وآثار الدموع تحفرُ مكانًا على وجهي، جلستُ بالقرب منها، امسكتُ بيدها، وقلت:

-ما من داعٍ للقلق، سيكون كل شيء على ما يرام، أنا فقط بحاجة لبعض الوقت يا أمي، أتفهم قلقكِ وخوفكِ، لكنني ابنة أمها، ما من شيء قد ينال منها.

ثم أنزلتُ رأسي على حِجرها، وبكيت، كانت تمسح على رأسي، شعرتُ بدموعها وهي تتساقط على وجهي لقد كانت حارقة.

-أريدُ البقاء وحدي يا أمي.

-ألم تكتفِ من الجلوس وحدكِ يا ابنتي.

-أرجوكِ يا أمي، لستُ بمزاجٍ يسمح برؤية الآخرين.

*حسنًا.

خرجت أمي من الغرفة، وطلبتُ منها إغلاق الباب بعد خروجها ففعلت.

فتحتُ النافذة واخذتُ استنشق الهواء، كان الطقس خريفيًا، وباردًا، لففت يداي حولي، كمحاولةٍ مني لضم نفسي، لأنها في تلك اللحظة تحديدًا كانت وحدها تعرف حجم معاناتي.

سمعتُ صوت أبي يدخل البيت، تذكرتُ أنني اتجنب لقاءهِ منذ آخر مرة ذهبنا فيها معاً إلى الطبيبة، لقد كنتُ اتحاشى اللقاء بهِ.

لم يخطر ببالي ولو للحظة، أن يكون أبي جاهلًا بطريقته في تربية أبناءه، وفي اللحظة ذاتها عذرتهُ، فلم يمر أحدٍ من عائلتي بموقفٍ كهذا، كنا جميعنا نقف نتساءل عن الذي حدث، ومن منا كان مخطئًا بحق الآخر، تذكرت

الطبيب الذي حدثتني عنهُ الطبيبة النسائية، وتذكرتُ بطاقتهِ التي رميتها في حقيبتي.

ذهبت لأبحث عن البطاقة، كنت أقرأها حرفًا بحرف، وبقرارة نفسي اتسأل عن مدى صحة قرارٍ كهذا.

بعد دقائق من التفكير، ضغطت أرقام الهاتف على هاتفي واتصلت، قمتُ بحجزِ موعدٍ لبعد أسبوعٍ من الآن، وما إن أغلقت المكالمة، حتى سمعتُ صوت طرقاتِ على البابِ، فقلت:

-تفضل.

وإذ بهِ أبي يدخل، كان يمشي يجر قدميه، وقفتُ أمامه، ومسك بيدي واجلسني بجانبهِ، وبصوتٍ أقرب إلى الهمس، قال:

*"غفران"، أنتِ أصغر إخوتكِ، في اليوم الذي ولدتكِ فيهِ أمك، نشب بيننا خلاف كبير، وأوشكت أمكِ على مغادرة البيت، منعتها، وقلتُ لها أن هذا البيت لها ولإخوتكِ، وأنا من يتحتم عليه المغادرة، وليس هي.

وخرجتُ من البيت، لا أعرف أين اذهب، كنتُ قلقًا لأجلها، ولأجلكِ، فلم نكن أنا ووالدتكِ من الذين يختلفون كثيرًا، وأمكِ هادئة الطبع، كان أجمل ما فيها أنها تستطيع احتوائي في أوج غضبي، كنتُ قلقًا عليها، وذهبتُ إلى بيت أخي "عامر"، وطلبتُ من زوجته أن تتصل بها، لعلي أطمئن عليها، لأنها لم تجب على اتصالاتي الكثيرة، وقد حذرتني من العودة إلى البيت، قائلة أنها ستتركه، إن عدتُ إليه.

حين اتصلت زوجة أخي، قالت لها أمكِ أن ألم المخاض قد أصابها، وذهبت إلى طبيبها، لا أعرف كيف وصلت إلى المستشفى، لقد تملكني الخوف عليها وعليكِ، وكلما اقتربنا أكثر كلما انكمش قلبي في صدري، في أقل من خمسة عشر دقيقة كنتُ هناك.

حين سألتُ عنها قالوا أنها على وشك الولادة، وطلبتُ رؤيتها، فدخلتُ إليها وكانت تصرخ من شدة الألم، تعرفين أنكِ كنتُ الوحيدة من بين إخوتك من حضرتُ ولادتها، ربما لهذا السبب كنتِ أقربهم لي، وكنتُ لأول مرة أرى أمكِ تبكي وتصرخ، لم تكن المرأة التي اعتدت أن أراها بكامل هدوئها، مسكتُ بيدها، وقلتُ لها وأنا أبكي:

-اغفري لي، لم أقصد.

كادت أن تنطق ولكنكِ قطعتِ لحظتنا تلك، وقررت أن تأتي في تلك اللحظة تحديدًا، وجئت إلى هذه الدنيا، واسمتكِ والدتكِ "غفران".

اخبركِ بهذا لأنني أؤمن بأن لكل امرئ من اسمهِ نصيب، لأنكِ "غفران"، اعرف يا ابنتي أن ما مررتِ بهِ لم يكن بالشيء الذي يسهل تجازوهِ، لكنه ليس صعبًا، لتغفري دائمًا، طالما أنكِ حية في هذهِ الدنيا، اغفري، كي لا تنتهي بكِ الحياة وأنت تقفين في ذاك المكان، الذي كُسرَ فيهِ قلبك، فلا أنت قادرة على جبر كسركِ ولا أنتِ قادرة على التجاوز.

لن تجنِ من الوقوف هناك سوى الألم.

كنتُ مع كلمة ينطق بها أبي أبكي، وأشدد من قبضة يدي على يده، لقد كان يبكي هو أيضًا، عانقني، وعانقتهُ أنا أيضًا.

تمنى لي ليلة سعيدة، وخرج من الغرفة.

وجلستُ أنا أمام النافذة من جديد، افكر بما قالهُ والدي، بكل ما حدث منذ شهرين، حينها فقط، أدركتُ أن قلبي لم يكن كبيرًا بما يكفي ليحمل هذا الألم وحدهُ.

الفصل الثاني.

فجأةً وجدتُ نفسي أمام باب العيادة، كنتُ أسير بترددٍ واضح، أقرأ اسم الطبيب، وأردد بداخلي أنني هنا الآن لعلي أعثرُ على نفسي من جديد، في الوقت نفسهِ كانت خطواتي تزداد واحدة للأمام، وعشر خطواتٍ للخلف، بين أنني أريد ولا أريد، وجدتُ نفسي بنهاية الأمر أقف أمام السكرتيرة أخبرها عن اسمي وأن هناك موعدٍ مسبق، لترد بأنهُ عليّ الانتظار حتى يخرج المريض الذي بالداخل.

لفتني كلمة "مريض"، فسألتُ نفسي هل حقًا أنا مريضة؟

وأجبتني لماذا أنتِ هنا إذن؟

لأنني أريد أن أجد نفسي من جديد، ولأنّي لستُ قادرة على البوح على ما بداخلي لأبي وأمي وصديقاتي اللواتي لا أعرف عنهن شيئًا منذ مدةٍ طويلة.

في أثناء غرقي ببحر الأسئلة، قاطع شرودي صوت السكرتيرة لتعلن أنه عليّ الدخول، فالطبيب بانتظاري.

دخلت إلى غرفتهِ، كانت هادئة تنبعثُ منها رائحة العطور الهادئة، والموسيقى التي تبث الراحة في النفس، كانت كلها باللون الأبيض، عدا عن واجهة واحدة تتوسطها النافذة، كانت باللون الأزرق كلون السماء، كان الطبيب ينتظر مني أن اتقدم، لكنني أقف بمحاذاة الباب كمن يريد أن يهرب، أو من ينتظر يدًا تنتشلهُ مما هو فيه.

جاءني صوتهُ وهو يقول:

-تفضلي.

اقتربتُ من المكان الذي يجلس فيه، كان خلفهِ مكتبة مليئة بالكتب، عناوين عربية وانجليزية، شهادات تقدير، واخرى كثيرة، جوائز لا تحصى ولا تعد.

نظرتُ إليه وقلت:

-يبدو أنك تحب ما تعمل لتحصد كل هذه الجوائز.

*يُبدع المرء بالأشياء التي يحبها.

ثم نظر إلى الملف الذي أمامه، وتابع:

*يا "غفران"، أهلاً بكِ.

-شكرًا لك.

*قبل أن يبدأ أحدنا بالحديث، علينا أن نتفق أنكِ هنا لستِ مريضة، فهذا المعتقد الخاطئ الذي وقع بهِ الكثير من الناس، أنتِ لستِ بمجنونة، ولستِ مريضة، هناك حدثًا أوصلكِ إلى هنا، أفقدك القدرة على إكمال حياتكِ، وأنت هنا لتتخلصي منها وتكملين من حيث توقفتِ، ما يحدث داخل الأربعةِ جدران فهو يبقى فيها، لا يعرف ما يدور هنا سوى كلانا، السرية في المهنة أهم من أي شيءٍ آخر.

-هل أخبرتك الطبيبة "سهى" بالأمر؟

*أنتِ هنا لأسمع منكِ لا عنكِ.

أعاد تشغيل الموسيقى التي أوقفها حين بدأ الحديث، أمسك بورقة وقلم، وطلب مني أن استلقي على تلك الكرسي الموجودة قرب النافذة، كان الوقت في منتصف النهار، والجو دافئ يبعث الهدوء في النفس، استلقيت وطلب مني أن أغمض عيناي، وأمرني أن أبدأ بالحديث من حيث أريد.

بعد صمتٍ استمر لدقائق.

-"اسمي "غفران"، في السادسة والعشرون من العمر، تخرجتُ من الجامعة بالتخصص الذي أحببته، درستُ الفنون الجميلة، لم يعارض أفراد عائلتي رغبتي بدراسة الفنون، كانوا يعلمون أنني إن أردتُ شيئًا تمسكتُ به حتى أحصل عليه، لطالما كانت رؤيتنا لبعض الأمور تتعارض، هذا إن لم يكن

كلها، لكنني ابنتهم الصغرى، كانوا في نهاية الأمر يتركون لي الخيار، يكتفون بتقديم النصيحة، وأحيانًا كثيرة كانوا يريدون مني أن أخوض غمار التجربة وحدي، حتى أعرف أنهم كانوا على حق، فأعدل عن رأيي.

لي ثلاثة أخواتٍ من البنات، "رؤى، ليلى، عهد"، تكبرني "رؤى" بعشرة أعوام، لكنها الأقرب من بينهن جميعًا، تزوج ثلاثتهم، وبقيتُ أنا.

حين كنتُ في سن الثامنة عشر، ألتقيتُ "زياد"، حيث انتقل مع عائلته إلى الحي الذي نسكن فيه، في الشقة التي تقابل شقتنا، كنا في المرحلة العمرية نفسها، لم يكن لديه أقرباء، انتقل بعد انفصال أمهِ وأبيه، ولأن والدته لم يكن هناك من يرعاها اختار أن يبقى في جوارها، ألتقينا حين عرضت عليهم أمي المساعدة أثناء انتقالهم، وكانت تتردد بين الحين والآخر لتطلب من أمي شيئًا ما أو المساعدة، حتى توطدت العلاقة بيننا، إحدى زياراتها نادتني أمي لأحضر القهوة، حين كنتُ أقدمها طلبت مني والدته أن أرشح لها أسماء أساتذة لأجل ابنها الذي في الثانوية العامة، فأخبرتها أمي أنني في نفس المرحلة، وقد أساعدها، سميتُ لها بعض الأسماء ثم استأذنت للدخول إلى غرفتي، حتى تلك اللحظة لم نكن أنا "وزياد" قد ألتقينا.

بعد ثلاثة أيام من زيارة والدتهِ، تأخرتُ على المدرسة، خرجتُ من المنزل وأنا على عجلةٍ من أمري، حين كنتُ أقوم بإغلاق الباب، كان يقف هو أمام شقته، وقام بإلقاء التحية، بادلتهُ إياها، وذهبت.

تكررت لقائتنا الصباحية، وأحيانًا أثناء العودة من المدرسة، لم نكن نتحدث، كان يلقي التحية، وأنا أردها، وأغادر.

إحدى الأيام أصابني المرض وامتنعتُ عن الذهاب للمدرسة ربما لثلاثة أيام أو أكثر من هذا بقليل، حين استعدتُ صحتي، عدتُ إلى الدراسة، خرجتُ كعادتي من المنزل، لكنني لم أراه، غادرتُ الشقة وقبل أن أصل إلى نهاية

الحي، وجدتهُ يقف تحت الشجرة الكبيرة، أدهشني الأمر في البداية، وازدادت دهشتي حين لحق بي، وناداني باسمي، توقفت وسألتهُ:

-ماذا هناك؟

*صباح الخير، حمدًا للهِ على سلامتكِ.

-شكرًا لك.

*كيف اصبحتِ الآن؟

-بخير، شكرًا لسؤالك مرة أخرى.

بعدها أكملت طريقي، كنتُ أشعر بهِ وهو يسير خلفي لكنه ضل ملتزمًا للصمت حتى وصلنا إلى مدرستي، ألتفتُ إليه ولوحتُ له بيدي أودعه.

تكرر الموقف، وكان دائمًا ينتظرني أمام تلك الشجرة، يوصلني إلى المدرسة، ويكمل طريقه، ولكنه لم يحاول ولا مرة أن يتحدث.

انتهت المرحلة الثانوية، نجح كلانا، درس هو الهندسة، وأنا الفنون الجميلة،

كنا في الجامعة نفسها، بدأت تتكرر لقائتنا من جديد، اشترت له والدته سيارة لنجاحه، عرضت على والدتي أن يقوم باصطحابي بما أننا في الجامعة نفسها، لكن أمي اعتذرت عن هذا الأمر بشكل لائق، ووافقت أمي أيضًا، كنا نلتقي في الجامعة مصادفةً، نلقي التحية ونغادر، حتى استوقفني ذات مرة، وطلب أن يتحدث معي بشأنٍ خاص، طلب مني انتظارهِ بعد انتهاء المحاضرات، انتظرتهُ في مكتبة الجامعة حتى وصل.

جلسنا على أحد المقاعد، وبدأ الارتباك جليًا في صوتهِ، بادرتُ بسؤالهِ عن سبب لقائنا:

*أردتُ أن أتحدث معي بشأنٍ خاص بي.

-ماذا هناك؟

*لا شيء يدعو للقلق، أنا فقط أردتُ إخبارك بأنني معجبًا بكِ، منذ وقتٍ طويل، انتظرت حتى تنتهي المرحلة الثانوية، وأن اسمح لنفسي بالتأكد من مشاعري نحوكِ، ولي رغبة بالتقدم لخطبتكِ، لكن قبل هذا أريد بعض الوقت لتعرفيني وأعرفكِ عن قرب، هل مانعين؟

-...

*حسنًا، فكري بالأمر مع نفسكِ، انتظر منك إجابة.

بعدها تركني في المكتبة وغادر.

بعد جملتي الأخيرة شعرت بالدوار، وطلبتُ من الطبيب أن نتوقف عند هذا الحد، كنتُ أمسكُ برأسي بقوةٍ كما لو أنه يكاد يطير، فسألني:

*هل أنتِ بخير؟

-ليس كثيرًا، فأنا لم أتحدث بالأمر منذ مدة، عادت لي الذكريات كلها مرة واحدة، إنها ثقيلةً جدًا على قلبٍ بحجم كفة اليد، أنا أختنق كما لو أني أتنفس من ثقب إبرة، لم أتخيل أن أكون يومًا بمكانٍ كهذا، دعنا نتوقف أرجوك.

*حسنًا، لكن ما تشعرين بهِ أمرًا طبيعي، إنك الآن كما لو أنك فقدتي ذاكرتك، وعادت فجأةً، ستشعرين بتحسن، الآن أخبريني هل تواجهين صعوبة في النوم؟

-أجل، هذهِ إحدى الأسباب التي جاءت بي إلى هنا.

*حسنًا، سأكتب لكِ بعض الأدوية واظبي على تناولها، حين تخرجين من هنا ستخبركِ السكرتيرة في الخارج عن الموعد الثاني.

-حسنًا، شكرًا لك.

تناولت من يد الطبيب الوصفة الدوائية وخرجت من الغرفة، لم يختلف حالي كثيرًا، بل شعرت بالسوء أكثر، ربما لأنني تحدثت عن "زياد" وعن قصتنا،

لم يسبق وأن تحدثتُ مع أحدٍ عنهُ بكل هذه الدقة، لطالما كنتُ حريصةً على الاحتفاظ بتفاصيلهِ لي وحدي أنا.

كان يدور في رأسي فكرة كيف أنه تخلى عني، كيف يتخلى من أدعى الحب، أم أنهُ لم يكن حبًا، كيف لا وكان أكثرهم دفئًا وعطاءًا على الأقل بالنسبة إلي.

عدتُ إلى البيت بثقلٍ أكبر، وحزنٍ أشد، ألقيتُ التحية ودخلت إلى غرفتي، تناولت الأدوية التي وصفها الطبيب، استلقيتُ في سريري، وفتحت هاتفي أخذت أقلب فيه، فتحت تطبيق الواتس اب وبحثت عن اسم "ملجأي"، لازالت صورته غائبة، قمت بفتح المحادثة، فهذهِ عادتي منذ لحظة الفراق، تأملتُ بعض الرسائل، فتحت التسجيلات الصوتية، مرةً اضحك واخرى أبكي، انتقلت إلى الفيس بوك، ضغطت ازرار حروف اسمه لتصفعني جملة "هذه الصفحة غير متوفرة"، لقد كان يخطط على الرحيل منذ مدة، لم يحدث هذا فجأةً، كما لو أنهُ كان بمهمةٍ ما أنتهى منها وغادر تاركًا خلفهُ بقايا امرأة وشعور.

قمتُ بتفعيل وضع الطيران في هاتفي، مددت يدي تحت الوسادة ابحث عن صورته لأتأمل ملامحهُ وأتحدث إليه ككل مرةٍ يهزمني فيها العالم، هذهِ المرة عادت يدي خاوية لا تحمل شيئًا، قفزت من سريري لأبحث، لكنها كانت قد اختفت من غرفتي، جاءت أمي على صوت ندائي، وسألت بخوف:

*ماذا حدث؟

-أين الصورة؟

*ماذا ستفعلين بها؟

*ارجوكِ يا أمي، أين هي؟

-أعطيتها لوالدكِ ليتخلص منها، إنها لا تعنيكِ بعد الآن.

جلستُ أمام قدميها أبكي كطفل، ارجوها أن تعيدها إليّ، لكنها رفضت، وأخبرتني أنه ما من جدوى للبحث عنها.

-ارجوك لمرةٍ واحدة فقط دعيني انظر إليها، أخاف أن أنسى وجهه يا أمي، أخشى ألا تذكر لون عينيه، ارجوكِ أعيدوها إليّ، إنها أخر ما تبقى منه.

جلست أمي على ركبتيها أمامي، وعانقتني، كانت تبكي لبكائي، تمسح على شعري، وقالت:

*لا يمكنكِ أن تنسي، وأنتِ تحملين أشيائه بداخلكِ، وتنثرين صورهِ في غرفتكِ، لقد كان يعلم أن شيئًا كهذا قد يقضي عليكِ، ولكنه جازف بخسارتكِ، شخصًا كهذا لا يستحق منا أن نطوي حياتنا نفكرُ فيه ونبحث عنه، تذكري يا ابنتي أنه إن كان عليكِ أن تتعافي فعليكِ أن تتعلمي كيف يكون التخلي، ما مررتي بهِ لم يكن سهلًا، أنا أم يا "غفران"، أمكِ التي تراكِ تذبلين يومًا تلو الآخر، تلتقطين أنفاسكِ بصعوبة من كثرة البكاء، يؤلمني قلبي كلما مررتُ بباب غرفتك ليلًا فأسمعك تناجين الله أن يعيدهُ إليكِ، لا يمكنني أن أقف مكتوفة الأيدي وأنا أراكِ تموتين، سيكون كل شيءٍ بخير لا تقلقي يا ابنتي.

لا أذكر ما حدث بعد ذلك، استيقظت صباحًا على صوت أخواتي وأبنائهن، لم أكن بالمزاج الذي يسمح برؤية الآخرين، على مضض قمتُ من سريري توجهتُ إلى دورة المياه لأغتسل وأغير ملابسي.

أعرف جيدًا أن زيارات أخواتي كان محاولة منهن لتخفيف وطأة الشعور الذي أعيشه، ليحاولن إخراجي من الحزن الذي أعيش فيه، ويعلمنّ من داخلهنّ أن هذه المحاولات فاشلة، على الأقل في هذه الفترة.

تبادلنا التحية، حضرت والدتي مائدة الإفطار، جلستُ معهم بالإكراه، كانوا يتبادلون الأحاديث والنكات بينما أنا أعيش في مخيلتي بمكانٍ آخر أجلسُ فيه وحدي، استأذنت منهم للعودة إلى غرفتي وطلبت ألا يقوم أحدًا بإيقاظي،

عدت إلى غرفتي وأغلقتُ الباب، وتبعتني أختي الكبرى، طرقت الباب وأذنتُ لها بالدخول.

جلست على حافة السرير، بدوري اعتدلتُ في جلستي، وسألتني بصوتٍ خائف:

*هل أنتِ بخير؟

-هل أبدو لكِ هكذا؟

*إلى متى يا "غفران"؟

-لستُ بخير، قلبي يبكي، كل شيءٍ بات يؤلمني يا "رؤى"، لستُ قادرة على التجاوز، أكنتُ أستحق منه هذا، كيف يجعلني أشعر بأنني لم أكن كافية، لماذا؟

كيف قرر فجأة الرحيل دون ترك مبررٍ واحد على الأقل، حتى لو سيقول أنه لا يحبني، لم يعد يريد وجودي، كنتُ سأعرف السبب كنتُ سأكف عن أكل نفسي هكذا، وتأنيبها على شيءٍ لا ذنب لنا فيه.

كنت أبكي وأنا أتحدث إلى أختي، لقد كانت تعرف عن علاقتي ب "زياد" منذ لحظتها الأولى، كانت دائمًا تحذرني من الوقوع في الخطأ، كانت وصيتها الأولى والأخيرة دائمًا ألا أتعلق بهِ، وأن أترك مسافة أمان تجعلني لا أنهزم، كما لو أنها كانت تعلم أن لحظةٍ كهذه ستأتي.

يُصادف اليوم الموعد الثاني عند الطبيب النفسي، تخلفتُ عن الحضور لشعوري بأن خطوةٍ كهذه لم تكن صحيحة، وأن الحديث بالأمر سيزيد الأمر سوءًا.

ازدادت ساعات نومي، وازداد معها انقطاعي بالعالم الخارجي، توقفت زيارات إخوتي، ربما لأنهنّ تأكدن أنه ما من جدوى لحضورهن، وأن محاولاتهن باءت كلها بالفشل.

استيقظت في المساء، خرجت إلى غرفة المعيشة، تجولتُ قليلًا بالبيت، كان الجميع نيام، عدتُ إلى غرفتي، تذكرتُ أنني قمت بإغلاق هاتفي قبل النوم، فأعدتُ فتحه، وجدتُ رسالة من الطبيب يسألني عن سبب عدم حضوري قبل أيام.

ترددتُ قليلًا بالرد، لم أجد إجابةً مقنعة، وكان الوقتُ متأخراً، أعدتُ الهاتف إلى مكانه، وتناولت جرعة أخرى من الحبوب المهدئة، واستلقيتُ في سريري، بانتظار أن تنال مني المهدئات وأغفو.

كنتُ من أولئك الذين يجدون مهربًا من خلال تأملهم بالسقف، كانت هذهِ عادتي، لطالما تمنيتُ أن تكون غرفتي بلا سقفٍ وأمضي ليليّ أعد النجوم، وأتأملها، كنتُ أقوم بالرسم بلا قلم وألوان، هكذا بالهواء، وكانت دائمًا صورتهِ هي التي ارسمها.

استيقظتُ على صوت المنبه، نسيتُ إغلاقه بالأمس، كانت الساعة السابعة صباحًا، نهضتُ من فراشي، وحصلتُ على حمامٍ دافئ، أعددتُ كوب قهوة، وجلستُ أمام الشرفة، أتأمل شجر بيتنا، كنتُ أتأملها كما لو أني أشاهدها لأول مرة، لقد نال منها الخريف كما نال من قلبي.

أيقظني من شرودي رنين الهاتف، التقطتُه وكانت صديقتي من العمل السابق تتصل:

*صباح الخير "غفران".

-أهلًا "نور"، كيف حالكِ؟

*بخير، ماذا عنكِ؟

-بخير، شكرًا لكِ.

*اعلم أن الوقت ليس مناسبًا، طلبت مني الإدارة أن اقوم بالاتصال بكِ، أسألك عما إذا كانت لكِ رغبة بالعودة للعمل، لازال مكانكِ شاغرًا.

-لا أعلم حقًا يا "نور"، لستُ على استعدادٍ لخطوةٍ كهذه.

*اعرف، اعرف، لكنكِ تعلمين أيضًا أن العمر لن ينتظرك، والفرص التي تذهب قد لا تعود، فكري بالأمر، واخبريني بقراركِ حال تتخذيه، سأغلق.

-حسنًا، إلى اللقاء.

أعدتُ الهاتف إلى مكانه، وفكرتُ بنصيحة "نور"، اعرف أنها على حق، لكنني لستُ بظروفٍ تساعد على العمل، قررتُ أن اتصل بالعيادة لتحديد موعدٍ جديد، اتصلت وتم تحديد الموعد بنفس اليوم.

جهزتُ نفسي، واستأذنتُ والدتي للخروج، وصلتُ إلى هناك، لم انتظر كثيرًا حتى جاء دوري.

دخلتُ إلى الطبيب الذي كان ينظر نحوي بتساؤل، وقبل أن يسأل، سابقته بالحديث وقلت:

-حين جئت هنا أول مرة، شعرتُ أن هذا المكان لا يناسبني، وحين تحدثتُ عن أمرٍ يخصني إلى شخصٍ لا أعرفه بدا الأمر غريبًا، لا أجدُ نفسي مجنونة لأكون هنا، لم افقد عقلي بعد، لكنني أظن أن هذا الشيء سيحدثُ عما قريب، تتساءل عن سبب عودتي، هذا لأنني بحاجةٍ ماسة للخروج مما أنا فيه، حالًا، لا أطيق الانتظار ولا احمل بجعبتي المزيد من الصبر، لقد نفذ.

كان ينظرُ إلي وأنا أتحدث، ومع كل كلمة كنتُ انطق بها تزداد دموعي معها، انتظر حتى تحدثت بكل ما في خاطري، واخذ نفسًا عميق ونظر إلي وقال:

*لا شيء يحدث بين يومٍ وليلة، سيحدث ما تريديه، لكن أولًا عليكِ إكمال قصتك، لأعرف السبب، لنجد الحل المناسب، ولنتخلص من ذاك الخوف

الذي يسكنُ عينيكِ، وتذكري أنكِ هنا لستِ بمريضة، لنقل أنكِ في رحلة للبحث عن ذاتكِ.

توجهتُ نحو الكرسي، جلستُ ونظرتُ نحو الشرفة، وتابعت من حيث توقفتُ اخر مرة:

-"جاء "زياد" لخطبتي، لقد كان في اليوم الذي يصادف عيد ميلادي، في الخامس من شهر شباط لعام ألفين وعشرون، اذكر تفاصيل ذلك اليوم جيدًا كما لو أنهُ يحدث الآن، لم أنم، أمضينا الليل معًا نتسامر، ونضحك، نخطط للغد، نختار أسماء أبنائنا، كم من الأولاد والبنات سننجب، في كل شيء تحدثنا، ماذا سيرتدي، وماذا سأرتدي أنا، كانت فرحتي تلك الليلة لا تضاهيها أية فرحة مرت بعمري بأكمله.

جاء الصباح ببطء شديد، جاؤوا إخوتي وأبنائهن وأزواجهن، قامت أختي الكبيرة بتصفيف شعري، بينما الأخرى قامت بوضع مساحيق التجميل لي، اذكر يومها أنني كنتُ فراشة تحلق في البيت، خفيفة كما الريشة، اركض هنا وهناك، أتأكد من كل شيء في البيت، حتى لا أكون قد نسيتُ شيئًا، كان كل من في البيت يضحك، تارةً يسخرون مني وتارةً نغني، لم يكن يومًا عاديًا، لقد كان يشبهُ العرس الوطني، وقد كان "زياد" كل الأوطان بالنسبة إلي.

رن جرس الباب، منعتني أمي من الخروج قبل أن تناديني، حبستني في المطبخ مع أختي، لنصنع القهوة، كنتُ أتأمله بين الحين والآخر من خلف الباب، بدا كما لو أنه طفلًا في يومهِ الأول في المدرسة، رغم معرفته الجيدة بعائلتي، لقد كانت المرة الأولى التي أراهُ فيها خجولًا إلى هذا الحد، جاء برفقة والدتهِ فقط، قبل حضوره أخبرني أنهُ قد قام بالاتصال بوالدهِ يطلب منهُ الحضور، لكنهُ اعتذر بحجة أنه سيكون خارج البلاد.

اذكر صوته حين أخبرني أنه لن يكون سوى والدتهِ لتشهد على يومنا هذا، كان يوشك على البكاء، لقد بكى في كل مرة جاء ذكر والده ونحنُ نتحدث، حتى أنه أخبرني ذات مرة "ليتني كنتُ يتيمًا، على أن أكون ناتج زواجٍ خاطئ، وقرارٍ تم اتخاذهِ في لحظة حبٍ عابرة".

تمت قراءة الفاتحة، قدمتُ القهوة بعدها، حينها نظر إلي وقال بصوتٍ أقرب للهمس:

*لقد فعلناها.

خرجنا جميعًا لنحتفل بخطبتنا وبعيد ميلادي، كان يومًا حُفرَ في ذاكرة القلب أكثر منه في العقل.

بعدها تم عقد القران، كانت أيامنا معًا تمضي سريعًا، لانغماسنا في تجهيزات البيت، قلت أحاديثنا، ولقائتنا، لكن هذا لم يمنعنا من أن نحبَ بعضنا، واجهنا بعض المصاعب والمشكلات، اختلفنا في لون الأثاث، في مكان السكن، في كل شيءٍ تقريبًا، لكنهُ يأتي في آخر اليوم، ويخبرني أنهُ سيحدث ما أريد، وفعلًا، كنا نختار ما أريدهُ وإن كنتُ في بعض الأحيان أقدمُ تنازلاتٍ لأجله.

حددنا موعد الزفاف في صيف ألفين وواحدٍ وعشرين ، تحديدًا في الثلاثون من شهر تموز، لقد كان يحب الصيف لهذا اختار يومًا كهذا، أي قبل شهرين تقريبا من اليوم.

كنتُ في مركز التجميل، انتهيتُ من كل شيء، وجلستُ انتظر "زياد" ووالدتهِ لاصطحابي إلى قاعة الزفاف، تأخر قليلًا، ولم يكن يجيب على اتصالاتي، قلقتُ بشأنهِ واخبرتُ والدي، مر أكثر من ساعة، والحفل على وشك أن يبدأ وهو ليس هنا، لا في المستشفيات، ولا في مراكز الشرطة، بحثنا في كل مكان، حتى انتهى وقت الحفل ولم يظهر، كأنما الأرض تشققت وابتلعته، حتى هذهِ اللحظة لا أعرفُ عنه شيئًا.

كنتُ أبكي عند حديثي عن ذلك اليوم، خرج كل البكاء الذي بي دفعةً واحدة، وكأنهُ لم يكفي كل الأيام التي بكيتُ فيها، وتابعتُ حديثي:

قام بتغير رقم هاتفه، والدتهِ أيضًا، وقام بحظري من كل مواقع التواصل الاجتماعي أو قام بتغيرها لا أدري.

بين ليلة وضحاها لم يعد هناك ما يدعى "زياد"، سوى في ذاكرتي، كما لو أنه حلم شاهدتهُ وحدي.

قبل زفافنا بفترةٍ وجيزة، تحدثنا عن المسؤوليات، شاركنا بعضنا قصصًا سمعناها عن الزواج وأسباب نجاحهِ وفشلها، كان هذا الحديث جديًا أكثر من اللازم، لم يتوقف عن ذكر قصة والدته ووالده كمثال على الزواج الفاشل، لكنه دائما ينهي قوله "بأننا لا نشبهُ والديه بشيء، وأن قصتنا لم تكن مثلهم". "

توقفتُ عند هذا الحد، هذه المرة شعرتُ براحةٍ أكبر، كما لو أنه روحي قد غادرت جسدي، كانت خلاياي تنتفض في كل مرة أنطق فيها اسمه.

سألني الطبيب :

*ماذا عن العمل؟

-اتصلت بي صديقتي اليوم تخبرني عن فرصة لعودتي إليه، فقد قمتُ مسبقًا بتقديم استقالتي لأتفرغ للبيت.

*ألا تفكرين بالعودة؟

-لا أعرف، لا أجده قرارًا صائبًا.

*اعرف أنكِ قد قطعتي كل تواصلكِ بالعالم الخارجي، شيئًا كهذا طبيعي، هذهِ إحدى اعراض الاكتئاب، تشعرين أنكِ لستِ بحاجةٍ لأحد، لا تطيقين الحديث، تودين البقاء في صمت وعزلة، سأكتبُ لكِ بعض الأدوية، لكن لا

تكثري منها، التزمي بالتعليمات، كي لا تصابي بالإدمان، أنصحكِ بالتفكير بشأن عودتكِ للعمل، قطع صلتكِ بالآخرين لن ينفع بشيء، سيزيد الأمر سوءًا، ستواجهين صعوبة في البداية، يتحدث من حولك عما أصابكِ، لكن مع مرور الوقت وإن استطعتِ أن تواجهي العالم ستكونين قادرة على التخطي، توقفي أيضًا عن تناول الأدوية التي كتبتها لكِ أول مرة، لن يكون العلاج الدواء فقط.

الآن تشعرين أنكِ لا تثقين بنفسكِ ولا بمن حولكِ، في عقلكِ تشعرين أنكِ وحدك، وأن كل المحيطين بكِ يريدون أذيتك، سنعمل الآن على إعادة بناء الثقة بالنفس، وبعدها بالآخرين، سأنصحك بقراءة بعض الكتب، وإن كنتِ تحبين الكتابة، لا مانع، فقد تساعدكِ الكتابة على تفريغ بعض غضبكِ.

-سأكتفي بقراءة الكتب، لا تستهويني الكتابة، لكن سأحاول.

*حسنًا، سأرسل لكِ أسماء بعض الكتب.

لكن قبل أي شيء، عليكِ أن تعلمي ليس كل الأشخاص مثل "زياد"، لا أدافع عنه، ولا أضع له مبرراتٍ لكننا حتى الآن لا نعرف دوافعه، لا نعرف لماذا أتى، وفجأة ذهب، هناك أسئلة كثيرة لن تعرفين إجابتها إلا لو عاد، وهذا احتمالٌ ضئيل، اظنه سيخشى مواجهتكِ وعائلتك، لن يكون بالأمر السهل، وكل غائبٍ عدا إن كان ميتًا، سيعود.

انتظر زيارتكِ في الموعد القادم، ولا تتخذي قرار عودتكِ إلى العمل دون تفكير، انتبهي إلى نفسكِ.

غادرتُ العيادة، وأنا افكر بحديثي مع الطبيب، خجلتُ من اخباره عن أبي حين قرر أن يتأكد مما إذا كنتُ عذراء أم لا، ليتأكد إن كان الحب قد ذهب بي إلى نقطةٍ كهذهِ، كيف أثق بهم وبنفسي، كيف أعود لنفسي من جديد.

دخلت البيت، ألقيت التحية، ودخلتُ إلى غرفتي مباشرة، تفقدتُ هاتفي، طلبتُ الكتب التي أخبرني عنها الطبيب، أعددتُ كوب قهوة، ودخلت إلى الغرفة من جديد.

دخلت أمي تخبرني عن حفل لابنة خالي، وتطلب مني الحضور، احتد النقاش بيننا حتى وصل الأمر لأن تصرخ أمي بوجهي وتقول:

*ستبقين سجينة الذكريات، ستموتين في وحدتكِ ولن يعرف عنكِ أحد، لن تتخلصي من هاجسك الذي يُدعى "زياد"، ستبقين سجينتهُ للأبد.

اكتفيت بالنظر إليها، دون أن أرد على كلماتها، ظننتها ستكون أكثر تفهمًا، لكن هي أيضًا لم تعد تطيق حالتي، ووحدتي، لا تؤمن بالمرض النفسي، إن لم نعاني من ارتفاعٍ في درجات الحرارة، والتقيؤ فنحنُ بخير، هذا مفهوم المرض لدى عائلتي.

كيف تريد مني الحضور، ألا تخاف عليّ من ألسنتهم، من نظراتهم، ينتظرون الفرصة لحضوري، ليشاهدوا كيف نالت مني هذه الحادثة، وكيف أبدو نحيلة أكثر، وكيف استقرت الهالات السوداء تحت عينيّ.

استعدت والدتي لتذهب، لكنها في اللحظة الأخيرة، قررت ألا تكون في مناسبة كهذهِ، طرقت باب الغرفة، ودخلت، وجدتني أغطي نفسي من أخمص قدمي حتى رأسي، رفعت عني الغطاء، وجلست على ركبتيها، مسحت دموعي، وبدأت هي بالبكاء وسيلٍ من الاعتذارات على ما قالته، مسحت على رأسي، وقبلتني ثم خرجت.

بعدها غفوت.

قررتُ ألا أعود للعمل، أخبرتُ "نور"، وارسلتُ لها رسالة اعتذار.

بدأتُ بقراءة الكتب التي أوصاني بها الطبيب، بدأت الأيام تمر بطريقةٍ أسرع من ذي قبل، واظبت على الجلسات، دون علم عائلتي بالأمر، في

أثناء زيارتي للدكتور "مطر" سألني عن إمكانية رؤيته لعائلتي والحديث معهم، لكنني رفضت.

الفصل الثالث.

بدأَ فصلُ الشتاء، كان أكثر برودةً من العام الذي سبقهُ، لعل وحدتي وعدم وجودهِ معي هي السبب.

هذا اليوم أتممت مئة يومٍ من الغياب، كان من المفترض أن نكون معًا، لكنك قررت أن تكون مع نفسك لأسبابٍ لازلتُ أجهلها.

لم يتغير شيء، قصصتُ شعري، كخطوةٍ أولى في البحث عن الذات والتعافي من سرطان حبك الذي انتشر في قلبي وكلي.

بعد أن استيقظت وتناولت قهوة الصباح مع أمي التي بدأت تلاحظ التغيير في مزاجي، وتظن أنني بدأتُ أنساك، كانت تبتسم كلما رأتني أُقبلُ عليها لأتناول طعامي، أو لشرب القهوة، كانت هذه إحدى توجيهات الطبيب، أن أحاول جاهدة لإعادة بناء الروابط الأسرية، لا أخفي حقيقة شعوري بأنني بدأت أشعر بأنني أفضل حقًا، لستُ بخير، لكنني لستُ كما كنتُ قبلًا.

مع مرور الوقت يعتاد المرء، هذا الشيء تحديدًا يخيفني، أن أعتاد.

توجهتُ إلى العيادة، لا أملكُ مكانًا آخر أهرب من العالم سواها، وصلتُ على الموعد تمامًا، لكن الطبيب كان هو الذي تأخر هذه المرة، طلبت مني السكرتيرة أن انتظره لربع ساعة لحين وصولهِ، جلستُ في غرفة الانتظار، كنتُ دائمًا أحمل في حقيبتي دفترًا صغير وقلم، مددتُ يدي داخل حقيبتي لإخراجهما، فقد اعتدت في الفترة الأخيرة على قضاء وقت الفراغ في الرسم، ارسمُ أي شيءٍ يخطر في بالي.

فتحتُ دفتري، أولى صفحاتهِ كانت صورة "لزياد" قمتُ برسمها من قبل ونسيتُ أمرها، تأملتها كثيرًا، مررتُ أصابعي عليها كما لو أنني أتفقد ملامحه، جلست أحدق فيها لبعض الوقت، أسأل الصورة إن كان بخير؟

ماذا يفعل الآن؟

أين هو؟

مع من؟

ولماذا فعل هذا؟

قاطع شرودي صوت الطبيب وهو يعتذر عن تأخرهِ بسبب الحادث الذي وقع في المدينة، وتابع طريقهِ إلى غرفته، ولحقتُ بهِ بناءً على طلبه.

*أنا حقًا اعتذرُ منكِ.

–لا بأس أشياء كهذهِ تحدث في المدينة، دائمًا.

بعدها توجهتُ إلى الكرسي، وجلست.

كان الطبيب ينظر إلي بنظراتٍ تحثني على الحديث، وجهت بصري نحو النافذة، كان الجو يمطرُ بغزارة، اغمضتُ عينيّ، وبدأت انصتُ لصوت الموسيقى.

-هذا الجو يذكرني به كثيرًا، ألتقينا في يومٍ ممطر كهذا تمامًا، لقد كان الفصل المفضل لي.

اذكر ذات يوم، كنا نتحدث بشأن منزلنا، طلبتُ منهُ أن اختار لون غرفة الأطفال، وأن أقوم بترتيبها على ذوقي الخاص، لكنهُ رفض، بحجة أنني لن أكون أفضل من المهندس الذي يعمل على ديكور المنزل، احتد النقاش بيننا يومها كثيرًا، لأنني أخبرته أنه لا يثق بي وبقدراتي، لم يخجل من إخباري بوجهي أنني لا أملك المؤهلات الكافية، وأن أمرًا كهذا لا يمكن أن تقوم به مجرد هاوية للرسم.

لم تكن تلك أول مرة يكسرُ بها "زياد" أجنحتي، لكنها كانت أكثرها قسوة، يفقد المرء شغفه تجاه كل الأشياء خصوصًا التي يحبها إن لم يجد من يصفق له، ويحثه على المتابعة، خجلتُ من إخبار والدي بالأمر، لم أكن شجاعة بما يكفي لأقول له أنني في صدد العيش مع رجلٍ لا يؤمن بي، يراني قليلة، ومجرد امرأة، حين صارحتهُ بحقيقة شعوري بعد هذا الخلاف، علل ذلك أنه

كان غاضبًا، ولم يقصد الإساءة، لا أذكر كم المرات التي سمعتُ تلك الجملة، وكم المرات التي غفرتُ لهُ لأنهُ كان غاضبًا، ولأنهُ قال أسف.

يومًا آخر كنتُ اتصل بهِ لقلقي عليه بعد سماع نشرة الأخبار التي نشرت خبر حادث سير في الطريق الذي يؤدي إلى منزلنا، لخوفي أن يكون هو المصاب يومها لم تقوى قدماي على حملي، وضعتُ كرسيًا بجانب الباب وجلستُ اترنح وأبكي بانتظار عودته، كانت أمي تراقبني وتبكي، وتحاول أن تبث الطمأنينة على قلبي، اتصلتُ بهِ أكثر من ثلاثين مرة خلال نصف ساعة، ولم يجب، في الواحدة والثلاثين جاءني صوتهِ غاضبًا بسبب كثرة المكالمات التي وجدها مني، لم يمنحني فرصة لأخبرهُ عن خوفي وسبب كل تلك المكالمات، اكتفى بوصفي بأنني امرأة ثرثارة وأن طريقتي هذهِ قد تكون السبب في انفصالنا، وقبل أن أنطق أغلق الهاتف.

زاد بكائي مما أخاف أمي، بكيتُ فرحًا لأنهُ بخير، وقهرًا وغضبًا من طريقته، أخبرت أمي أنه بخير، وسيأتي حين ينتهي من أعماله، عدت إلى غرفتي دفنتُ رأسي في وسادتي وبكيت، كان بارعًا بهدم اللحظة بغضبه.

كان بارعًا أكثر بقول كلمة "أسف"، لقد كان دائمًا يعتذر للأسباب نفسها، كان دائمًا غاضبًا، دائمًا ما أكون أنا في مواجهة الغضب.

مرة بعد الأخرى يزداد إيماني بأنني أشق طريقي في جبل، كنتُ بعلاقتي معه كالذي ينحت في الصخر.

كل تلك الأحداث لا يعرف عنها والدي شيئًا، ولا حتى أمي، ولربما كان هذا الشيء الذي يزيد من جحوده نحوي، كان يحاول دائمًا شراء غضبي منه ومن طريقته ببضع هدايا، أو دعوة على العشاء، وبداخلي كنتُ أضحك على نفسي وعليه.

قد تعتقد أنني مجنونة، لكنني رغم كل تلك الأشياء التي عشناها معًا، كنتُ أحبه، كلانا أحب الآخر، الاختلاف كانت الطريقة، والنسبة.

بداخلي كنت مؤمنة أنه كطفل استطيع إسكاتهُ بقطعة حلوة، وبداخله يؤمن أنني امرأة لا حياة لها بدونه، كلانا كان محقًا بشأن الآخر.

لم أكن أعرف كيف عليّ أن أتصرف، مرة كان الطفل الوديع، ومرات كثيرة كالوحش الذي ينقض على الفريسة، رجلًا بقامته الفارعة لا يملكُ قلبًا.

كل مرة أقول فيها أنني أعرفه، أجد نفسي لا أعرف سوى اسمه.

توالت الأيام، وبدأت اعتاد على موجات الغضب التي لا تستمر أكثر من ليلة، وتوفقتُ عن العتاب، خوفًا من أن يعيق علاقتي به وتفقد ما تبقى من مشاعر.

رغم كل الأشياء السيئة، إلا أنهُ كان أيضًا الرجل الوحيد الذي استطاع حمايتي، واحتواء خوفي، وإن كانت كلها أشياء مؤقتة، لكنها حدثت معهُ فقط.

بعد ذلك فتحتُ عينيّ، ناولني الطبيب منديلًا، مسحتُ بها آثار الدموع التي على وجهي، وسألت الطبيب:

-متى سيغدو هذا الأمر شيئًا عاديًا؟

*ما حدث قبل الزفاف، أم القصة كلها؟

-كلها.

*كل شيء يصبحُ عاديًا إن توقفنا عن إقناع أنفسنا بأنها أحداث خارقة للطبيعة، إن بدأنا بإقناعها بعكس الأشياء التي بداخلنا، مثلًا:

توقفي عن إقناع نفسكِ بأن "زياد"، من الأشياء التي لن تتكرر، ستصادفين الكثير في حياتك، وربما يكونوا أفضل منهُ بكثير، هناك الكثير من الأشخاص الذين لم تلتقي بهم بعد.

الأهم من كل شيء، توقفي عن الانتظار، تعيقين حياتكِ، إنكِ هناك عالقة في اللحظة الأخيرة التي جمعتكِ به، أرى محاولاتكِ في السير إلى الأمام، لكنكِ لستِ قادرة، كلما خطوتِ خطوةً نحو الأمام تشعرين أن أقدامكِ تكسرت، ولا قدرة لكِ على المواصلة، إنك تحبسين نفسكِ في ذلك اليوم، وكل الأحداث التي حدثت بعد ذلك ما هي إلا أحلام تراودكِ، الحقيقة يا "غفران" عكس ذلك، لقد رحل، الواقع مؤلم لكن عليكِ أن تتقبليه لتواجهي ما تبقى.

مع كل كلمة كان يقولها يزداد بكائي، وأشعر بهِ كما لو أنهُ يعصرُ قلبي بين يديه، كنتُ أضع اليد اليمنى على قلبي، والأخرى أحبس بها أنفاسي، أحاول منع نفسي من الصراخ والبكاء، بكلماتٍ متقطعة قلت:

-ل... لك...لكنه وواق... واقعًا يؤلمني.

*...

-أنتَ لا تعرف ماذا يعني أن تسقط أحلامك فوق رأسكَ دفعة واحدة، أن تكفر بكَ كل الأشياء التي آمنت بها، لا تعرف ماذا يعني أن تفقد من ظننتهُ باقٍ حتى لحظاتهِ الأخيرة في الحياة.

*"غفران".

-نعم.

*ماذا لو عاد لكِ "زياد"، دعينا نتخيل، أنني هو، وجئتكِ معتذرًا بعد كل مرةٍ أفرغتُ عليكِ غضبي، تخيلي أنه يجلسُ أمامك ولستُ أنا، ماذا ستفعلين؟

نظرتُ إليه بتأمل، أحاول استحضار صورة "زياد"، رغم أنني قبل ساعةٍ أو أقل كنتُ أتأمل ملامح صورتهُ، في تلك اللحظة شعرتُ أنني لا أعرفها، لم اتذكرها، امسكتُ رأسي، وقلت:

-لا أذكر ملامحه، كما لو أنني لم أرهُ من قبل.

*حاولي مجددًا، انظرِ إليّ، بعدها أغلقي عينيكِ وتخيلي أنه يجلسُ معكِ الآن.

أعدت النطر إليه، تأملتُ ملامحه من جديد، بعدها أغلقتُ عيناي، ظهرت صورة "زياد" أمامي، كان يجلس قبالتي مباشرةً، يتحاشى النظر في وجهي، ويطقطق أصابعه، كانت هذهِ عادته كلما فعل شيئًا يعرف مسبقًا أنه على خطأ، طلبتُ منه أن ينظر في عيناي، حين فعل، ساد الصمت بيننا، وكانت نظرات العتب التي خرجت مني اختلطت بنظرات الأسف منه، كان حديث العيون في لحظتها أقوى من حديث اللسان، تخيلتُ بأنّي أسألهُ عن السبب، كانت نبرت صوتي أقرب للبكاء، بصوتٍ مرتجف وخائف، قلت:

-لماذا غادرتني فجأة؟ كيف غادرت دون أن تترك سببًا واحدًا يبرر غيابك؟ ألم تقل أنك تحمل لي حبًا أقوى من أي شيء في الوجود؟ أين هو هذا الحب الذي كنت تحكي لي عنه؟ أين ذهبت وعودك بالبقاء؟

*...

-هل كنتُ أستحق منكَ صفعةٍ كهذه؟

*لا أملك سببًا على ما فعلت، لا استطيع اخباركِ بسبب رحيلي، لكن امنحيني بعض الوقت، سأعود، آجلًا أم عاجلًا، فأنا عائد، لكن ليس الآن، لحين لقاءنا انتبهي لنفسكِ، لا تهملي صحتكِ، لا تتوقفي عن انتظاري.

-حتى وإن عدت، أنا لا أريد عودتك، لقد حصلتُ على ما يكفي من الألم.

بعدها فتحت عيني، والتقت نظراتي مع نظرات الدكتور" مطر"، أربكني الأمر قليلًا، فقد كانت المرة الأولى التي تلتقي نظراتنا مع بعضها، حاول أن يبعد عينيه عني، وسألني وهو يقلب الدفتر الصغير بين يديه:

*كيف تشعرين الآن؟

-لا أعرف، لقد رأيتهُ الآن أمامي، كان يطلب مني أن انتظر عودته.

*هل تظنين بأنه عائد؟

-لقد قلت لي قبلًا، أن كل غائب سيعود حتمًا.

*هذا يعني أنكِ ستنتظرين عودته.

-لا أعرف، لكن بداخلي غضب، لا أشعر أن الحياة ستعود إلى طبيعتها إن لم أفرغ هذا الغضب فوق رأسه، إن لم أحصل على كل الإجابات على الأسئلة التي تدور في رأسي، رأسي كالبركان سينفجر في آية لحظة.

*حسنًا، بعد عودتكِ للمنزل، اختاري مكانًا هادئًا، اجلسي فيه وحدكِ، لا بأس بالقليل من الموسيقى، بشرط أن تحافظي على تركيزكِ، أغمضي عينيكِ، أعيدي استحضار صورة "زياد" من جديد، أولًا، حاولي أن تركزي على تفاصيل سيئة مررتي بها في علاقتكِ به، قفي أمامهُ وأخبريه بكل شيء، بعدها تخيلي بأنكِ تغادرين المكان، وتتركيه خلفكِ يراقب خطواتك وأنتِ تبتعدي، بدوركِ قومي باستعادة شريط ذكرياتكِ معه، لكن ركزي أكثر على لحظاتٍ كنتِ بها سعيدة، هكذا حتى تغيبي عن ناظريه.

هذا التمرين سيساعدكِ على تفريغ الغضب، ستشعرين براحة أكثر بعدها، أعيدي تكرارها كلما تطلب الأمر، أو كلما شعرتي بأنكِ تريدين التحدث إليه.

-حسنًا.

*لا تترددي بالسؤال عن أي شيء، كيف العمل؟

-أشعر براحة في المكان الجديد، لكنني لا أستطيع تقبل الآخرين كما قبل، هناك حاجز يمنعني من الاقتراب ويجعلني أمنع الآخرين من محاولة معرفتي، أكون أكثر سعادة برفقة الأطفال.

*بالحديث عن الأطفال، كيف كانت علاقة "زياد" بهم؟

-لستُ متأكدة للكنه كان يتجنب الحديث عنهم معي، حتى وإن سألتهُ عن عدد الأولاد الذي يرغب به، كان يهرب من الإجابة، لم يسبق وأن اخترنا اسمًا، كان يكتفي بقول إن رزقنا الله بطفل نختارُ لهُ اسمًا في لحظتها، دعينا لا نتحدث الآن عن هذا الأمر، لم يكن يفعل هذا لأنه لا يريد مني الأطفال، أو لعدم رغبتهِ بوجودهم، بل بسبب طفولتهِ القاسية مع والده، هذا ما أخبرتني بهِ والدته فيما بعد، لقد كان بداخله طفلًا سجين الماضي، كان يخشى أن يكون قاسيًا كأبيه.

*حسنًا، سنكمل الحديث في الجلسة المقبلة، هل تشعرين الآن بأنكِ أفضل؟

-أجل، ليس تمامًا، لكن الحديث عن الأمر لم يعد يخيفني كالسابق، بدأت أتقبل الأمر، أو هذا ما أوصلتهُ لعائلتي، وأحاول أن أفعلهُ، الأمر يحتاج بعض الوقت، والجلسات بدأت تظهر نتائجها الإيجابية، كان اعتقادي صحيحًا بشأنك يا دكتور "مطر".

*أيُ اعتقادٍ؟

-بأنك طبيبٌ ماهر، وتحب ما تعمل.

*شكرًا لهذا الإطراء، لكننا لم ننتهي بعد.

-اتوق جدًا للحظة التي سينتهي بها كل شيء.

*ليست بعيدة.

-أتمنى ذلك، إلى اللقاء.

*إلى اللقاء.

مررتُ بطريقي إلى المكتبة، لأشتري كتبًا، جديدة، بعدها مررتُ إلى المحل الذي يبيع أدوات الرسم، اشتريتُ ألوانًا جديدة، ولوحاتٍ للرسم.

في طريق عودتي اتصلتُ بوالدي، وطلبتُ منه أن يحضر لي طلاءً أبيض للجدران، مع فرشاةٍ خاصة للطلاء.

وصلتُ إلى البيت، بدأت بتفريغ غرفتي، لم يبقى سوى سريري، وأشياء بسيطة، وصل والدي، أخذتُ منه ما طلبتهُ، قبلتهُ وشكرتهُ وعدت إلى غرفتي.

بدأت بطلائها، فجأة تبددت مشاعري إلى مشاعر أخرى، لم أكن تلك التي خرجت من البيت في الصباح، كما لو أنهُ تم استبدالي بواحدة أخرى، دخل أبي في هذه الأثناء إلى غرفتي، كانت مزدحمة بصوتي مع صوت "محمد سعيد" ونحنُ نردد "يا نجوم الليل أنا، وحدي لكن هنا" أغلقتُ الموسيقى وتحدثتُ إلى والدي، فسألني:

*هل أنت بخير يا "غفران"؟

-أجل يا أبي، لا تقلق، أنا فقط أردتُ أن أغير أشياء بسيطة في غرفتي،

وإضافة بعض الأشياء.

*جيدٌ يا ابنتي، سأتناول طعامي، وأعود لمساعدتكِ.

-لا بأس، يمكنني أن أقوم بهذا الأمر وحدي، ارتح قليلًا.

*أمتأكدة؟

حملتُ الفرشاة من جديد، وابتسمتُ لوالدي وهو يغادر الغرفة، وقلت:

-متأكدة، لا عليك.

سمعتُ بعدها صوت والدتي وهي تتمتم مع والدي تسألهُ عن حالي، فأجابها أنني بخير، وما من شيءٍ يدعو للقلق.

وأكملتُ ما كنتُ أفعله.

الفصل الرابع.

استيقظتُ باكرًا، ارتديتُ ملابسي، وصنعتُ لنفسي كوبًا من الشاي، كان الجو يمطر، لكنه دافئ، يبعث السكينة في الأرجاء، ارتديتُ معطفي وخرجت.

فتحت باب الشقة، ووقفتُ أمام شقة "زياد"، كانت فارغة، هادئة، باردة، بالرغم من أنني أقف على عتبة الباب ولم أدخلها، لكن مجرد النظر إليها وهي خاوية أصابني بالقشعريرة والبرودة معًا، مررتُ أصابعي على الباب، حاولتُ فتحه، لقد نسيتُ ملامح البيت، ألوان الأثاث، والجدران، كان غريبًا، كما لو أنني لم أدخلهُ من قبل.

أكملتُ طريقي، وحاولتُ أن أطرد الأفكار التي زاحمت عقلي فجأة، تجولتُ في شوارع الحي، لقد كان كل شيء جديد، كما لو أنني أزور المكان لأول مرة، اشتريتُ قطعة حلوى وتناولتها، كانت الشوارع قد امتلأت بالمياه جراء الأمطار الغزيرة، السماء تلونت بالأبيض، كان الطقسُ باردًا.

وصلتُ إلى العيادة، كان الدكتور "مطر" بانتظاري، رتبتُ ملابسي، وطرقتُ الباب، أتاني صوتهُ:

*تفضل.

فتحتُ الباب ببطء، ثم رفع رأسهُ ينظر، وابتسم وقال:

-أهلًا "غفران"، تفضلي.

مددتُ له كوبًا من القهوة، تناولهُ مني وقال:

*بلا سكر؟

-أجل، لقد سمعتُك ذات مرة تطلب القهوة بلا سكر، فأحضرتُ لكَ كوبًا.

*شكرًا لكِ.

أخذ رشفةً، وأكمل حديثهُ:

*تبدين أكثر إشراقًا اليوم.

-أشعرُ أنني بحالٍ أفضل.

*هذا يسعدني، إذن، ماذا فعلتِ خلال الأسبوع؟

-حين خرجتُ من هنا مررتُ بمحل الألوان، اشتريتُ ألوانًا جديدة، وطلبتُ من والدي طلاءً للجدران، وبدلت لون غرفتي فصارت كلها بياض، ثم زينتها برسوماتي.

*ماذا رسمتِ؟

-فوق السرير فراشةً زرقاء كبيرة، ونثرتُ حولها بعض الزهور باللون البرتقالي، الواجهات الأخرى زينتها بالنجوم، اردتُ أن ارسم شمسًا، لكن الأمر سيبدو طفوليًا أكثر من اللازم.

*لا داعي لرسم الشمس.

-لماذا؟

*أنتِ شمسها التي لا تغيب.

شعرتُ ببعض الخجل من حديثه، واستدرك هو ما قالهُ، وحاول تغيير مجرى الحديث، وتوجه إلى مكتبهِ، وقال:

*هل تمرنتِ جيدًا على تفريغ الغضب كما اخبرتكِ؟

–أجل، فعلتها ثلاث مرات خلال الأسبوع، في كل مرة كنتُ أشعر أنني بحالٍ أفضل.

*هذا جيد، ماذا عن العمل؟

-يجري بشكلٍ جيد، بدأت بكسر الحاجز الذي بيني وبين من يعمل معي، بدأنا بتحضير جداول الاحتفالات والأماكن التي سنزورها، كما أننا بدأنا بشراء الهدايا سنزور دارًا للأيتام في نهاية الشهر.

*تبدين سعيدة.

-جدًا، مرافقة الأطفال والجلوس معهم تعيدني طفلة في السادسة من عمرها، تواجدي معهم خلال هذه الفترة، كان لهُ الدور الكبير في تحسن حالتي، ولا أنسى جلساتك.

*ماذا عن "زياد"؟

-لا أعرف، بدأتُ بالاعتياد على الأمر، أو هكذا ظننت، لكني اليوم توقفتُ أمام باب منزله، في الحقيقة أنا أقف أمامه كلما خرجتُ من المنزل، حتى حين عرض والدي أن يبيع شقتنا وننتقل من الحي، رفضت ليس فقط تمسكًا بكل الذكريات التي تجمعني به، أيضًا لأنهُ البيت الذي كان شاهدًا على مرحلة طفولتي، ومرحلة البلوغ، النضج، كان شاهدًا على أسعد أيام العمر، وأكثرها تعاسة، أتعرف حين كنتُ طفلة دائمًا ما كنتُ أرسم على الجدران، كانت أمي توبخني دائمًا، لكن أبي يحميني، ويقول اتركيها تفعل ما تريد، حتى اليوم يحتفظ أبي برسوماتي على جدار غرفته، كان سعيدًا بعودتي للرسم.

"زياد"، لم يكتفي بتشويه علاقتنا، بل كل شيء، أشعل عود ثقاب وأحرق المكان بساكنيه، انتقالنا من الحي لا يكفي لسحقه، أو لنسيانه، لن أكذب، هو يعيش بمكانٍ ما بذاكرتي، وبقلبي، الفارق الوحيد بأنه لا يشغل الحيز ذاته، ولا أحمل لهُ المشاعر ذاتها، أظنني بدأتُ أتعافى.

*طالما أنك تحملين المشاعر، هذا يعني بأنكِ لم تتعافي بعد، التعافي هو أن لا تحملي بداخلكِ ذرة شعور تجاههُ، وإن كان كرهًا، التعافي هو أن تعيديهِ غريباً، قبل ذلك لا يمكنكِ أن تقولي بأنك تعافيتِ، لقد اقتربتِ من البداية.

بالمناسبة هل تمانعين بتغير المكان؟

-كيف؟

*سيكون من الجيد لو بدأنا بالجلسات خارج العيادة.

-أين؟

*هل تناسبكِ الحديقة العامة؟

-حسنًا لا بأس.

*موعدنا القادم هناك، يمكنكِ أن تأتي إلى هنا ونذهب معًا، أو أن نلتقي هناك، ما الذي يناسبكِ؟

-نلتقي هناك.

*حسنًا، سنبدأ بإيقاف الأدوية تدريجياً، كي لا تتأثري، لستِ بحاجتها مرحلة العلاج بالدواء على وشك الانتهاء.

-كيف سأنام؟

*يمكنكِ ذلك بسهولة، فالجرعات التي كنتِ تأخذيها لم تكن كبيرة، لهذا يمكنكِ الاستغناء عنها بسهولة، لا تقلقي.

-حسنًا.

انتهيتُ من العيادة، في طريق عودتي للبيت اتصلت أختي "رؤى"، أخبرتني أنها ترغب برؤيتي، اتصلتُ بوالدتي واخبرتها بأنني سأتناول طعام الغداء عند أختي.

وصلتُ على الموعد، أعددنا طعام الغداء، وأمضيتُ قليلًا من الوقت مع ابنها "رُشد"، يبلغ من العمر عامين، إنه أقرب أبناء أخوتي لقلبي.

لقد جاء بعد سبعة أعوام من الزواج.

بعدها أعدت "رؤى" القهوة، وجلسنا في شرفة المنزل، بدأت تسألني عن حالي وعن العمل، تحدثنا بكل شيء، عن أمي وقلقها، أبديت بعض الاستياء من معاملتها لي، لكنني في الوقت ذاته بررتُ أسلوبها بأنه خوف ليس أكثر.

سألتني عن "زياد"، عما إذا كنتُ أراقب حساباته الشخصية، فأخبرتها أنه قام بإغلاقها كلها، ولا أملك أية وسيلة تصلني به.

بداخلي أردتُ أخبارها بشأن الدكتور "مطر"، والعلاج النفسي الذي أخضع له منذ مدة، قاطعتُ لحظات الصمت، وقلت بصوتٍ خائف:

-"رؤى".

*نعم.

-أردتُ اخبارك بشيءٍ ما، لكنني خائفة.

*قولي ما تريدين، منذ متى وأنتِ تخجلين من إخباري.

-حسنًا، ربما أخبرتكِ أمي بزيارتنا إلى الطبيبة النسائية قبل مدة.

*أجل لقد أخبرتني.

-ما رأيكِ؟

*لا أبرر فعلتهم، ولا أضع حجةً لوالدي، لكنا جميعنا نعرف مدى تعلقكِ به، وكنا خائفين، فهروبه المفاجئ أثار الكثير من علامات الاستفهام.

جميعنا كنا نرى علاقتكِ به كعلاقة الكفيف بعصاه، تفقدين توازنكِ في غيابه، أخبركِ سرًا؟

-ماذا؟

*أبي لم يحبهُ أبدًا، بقرارة نفسه كان يعلم أنه ليس الرجل المناسب الذي تستندين عليه، لكن حبكِ له ومحاولاتكِ لإنجاح هذه العلاقة، منعتهُ من إيقاف هذا الزواج.

-ليتهُ أخبرني بهذا.

*كنتِ ستظنين أنه يمنعكِ من حب حياتكِ، لن تسامحينه يا "غفران"، لو حاول منعكِ.

لا أعرف كيف كان يرى من حولي علاقتي بك، أُدهشتُ من حديث أختي، وعن رأي والدي بك، يؤسفني أنه كان محقًا، الرجال تعرف بعضها.

-"رؤى"، أنا اخضع لجلسات العلاج النفسي منذ مدة ليست بقليلة.

نظرت لي أختي بدهشة، وقالت:

*كيف؟

-حين ذهبنا للعيادة، قدمت لي الطبيبة نصيحة بأن أزور طبيبًا نفسيًا، لأنني على ما يبدو لها أمر بنوبة اكتئابٍ حادة، ففعلت.

*وماذا؟

-لا أعرف، لكنني أشعر بتحسن، استطعتُ أن أتحدث عن كل شيء مررتُ به، ليس فقط زواجي الذي لم يكتمل، بل علاقتي بكل من حولي، كان خيارًا صائبًا.

*وإلى ماذا وصلتي؟

-شعرتُ بتحسن، لكنني لازلتُ اخضع للعلاج، ولا أظنني أحتاج الوقت الكثير.

ربتت بكفها فوق يدي، ونظرت إلي نظرة دافئة، وقالت:

*سيكون هذا الوقت مجرد ذكرى، سيصبح كل شيءٍ على ما يرام، لا تقلقي.

-أتمنى ذلك، أثناء حديثنا، دخل زوجها إلى البيت، لم نلتقي منذ ذلك اليوم، كان بمثابة الأخ الكبير، وناصحًا لي دائمًا، انضم لنا في الشرفة وألقى التحية، وبادلناه بدورنا، ثم استأذنت أختي لتحضر له طعام الغداء، جلس هو وجلستُ بمكاني، كنتُ اتحاشى النظر إليه، مرة انظر إلى الأرض، وأخرى إلى الشارع، سألني:

*كيف حالكِ؟

دون أن انظر، أجبتهُ:

-بخير، ماذا عنك؟

*بخيرٍ الحمد لله، حاولتُ أكثر من مرة أن أتحدث إليكِ، لكنكِ كنتِ ترفضين ذلك.

-لم أكن بحال يسمح لي بالحديث مع الآخرين.

*لا بأس سيكون كل شيءٍ بخير.

-إن شاء الله.

أمسكتُ حقيبتي ووقفت واستأذنتُ بالرحيل، فاستوقفني، وقال:

*إلى أين؟

-عليّ الذهاب، لقد تأخر الوقت.

*سنوصلكِ أنا و "رؤى".

-لا بأس يمكنني العودة وحدي.

*اجلسي، أريد الحديث مع عمي، لهذا سنذهب معًا، ثم نادى على أختي، وطلب منها أن ترتدي ثيابها لنخرج.

وصلنا إلى البيت، جلستُ أنا وأمي وأختي في الصالة، وأبي وزوج أختي في الغرفة الأخرى، سألت أمي "رؤى"، عن سبب زيارة زوجها لنا وحديثه مع أبي وحدهم، لكنها قالت بأنها لا تعرف شيئًا.

بعد نصف ساعة، ناداها زوجها وقد بدت علامات الغضب واضحة في ملامح وجهه، بكلمة واحدة:

*هيا سنذهب.

ذهبت أختي وراءه دون أن تعرف سبب غضب زوجها، وقالت:

*سأتصل بكما حالما اصل.

-حسنًا.

غادرت "رؤى" البيت، بعدها ذهبتُ إلى غرفتي، بدأت بقراءة كتابٍ جديد يتحدث عن الاكتئاب.

بعد ساعة، قررتُ أن اصنع لنفسي فنجان قهوة، خرجتُ إلى المطبخ، ومررتُ بغرفة والداي أسألهم إن كانوا يرغبون بشرب القهوة معي، وقبل أن أطرق الباب، سمعتُ أمي تصرخ:

*ماذا؟

توقفتُ للحظات، قبل أن أطرق الباب، واكمل أبي حديثه:

-زوج ابنتكِ يظن أن "غفران" بعد الذي أصابها، ستقبل بأية رجل، وأنه ما من رجل سيتقدم لخطبتها بسبب هروب ذاك اللعين من الزفاف، لذلك رأى أنه لو كان من الأفضل أن يزوجها لأخيه الأكبر منهُ سنًا.

تجاهلت ما سمعته، وعدتُ إلى غرفتي قبل أن ينتبه أحدًا لوجودي.

مضى هذا الأسبوع ببطءٍ شديد، كان العمل أيضًا شاق، قمنا بزيارة دار الأيتام التي في المدينة، وفي المدينة المجاورة، كنتُ انتظر بفارغ الصبر موعد الجلسة مع الدكتور "مطر".

أخيرًا أتى موعدها، استيقظتُ باكرًا، ارتديتُ ملابسي ووضعتُ القليل من مساحيق التجميل، وتوجهتُ إلى الحديقة، وصلت وكان هو قد وصل قبلي.

توقفتُ أمامه وألقيتُ التحية، وأخذنا نترجل في أرجاء الحديقة، كان الجو مشمسًا ودافئًا، اشترينا القهوة، مضى بعض الوقت والصمت يلازم كلانا.

توقفنا عند البركة، استنشقتُ الهواء، ودون أن انظر إليه، قلت:

-هناك من تقدم لخطبتي.

نظرتُ إليه، وبادلني النظرة بدهشة، وقال:

*حقًا.

-أجل.

*من يكون؟

-شقيق زوج أختي.

*ما رأيكِ.

عاودت النظر إلى البركة، وقلت:

-يكبرني بخمسة عشر عامًا، أي أنه في عقده الرابع، تزوج ثلاثة مرات، طلق الأولى لأنهُ امسك بها مع رجلٍ آخر، رغم زواجهم بعد قصة حب، لكنها في النهاية، فضلت رجلًا آخر، أما الثانية، فلم تحتمل أطباعه، فقد كان يعاني من صدمة وأزمة ثقة بالنساء، فشعرت أنها سجينة لا زوجة، فطلبت الانفصال، أما الأخيرة، أغواها مالهُ، وأرادت ان تتخلص من فقر عائلتها

وتبحث عن السعادة التي تحلمُ بها، تنازلت عن حلمها بأن تكون أمًا حين اخبرها بعدم قدرتهِ على الإنجاب، وفضلت المال على الأمومة.

*ماذا حدث بعد ذلك؟

-لا شيء، كما حدث مع قبلها، لم تتقبل السجن...

ضحكتُ بعدها وأكملت:

-لقد كان بخيلًا، ولم تجني منه مالًا ولا ولدًا.

نظر إليّ، وقال:

*هذهِ أول مرة منذ لقاءنا أراكِ تضحكين.

-شر البلية ما يضحك.

سمعتُ والدي وهو يتحدث إلى أمي بشأن هذا الأمر، انتظرت منه أن يتحدث معي، لكنه تجاهله، ما ادهشني غضب زوج أختي من رفض والدي، أو صورتي بعينيه بعد الذي حدث، جعلني أشعر أنني سببتُ فضيحة لا يمكن إدراكها سوى بالزواج من رجلٍ معقد يغير نساءه كما يغير قمصانه، تزوج ثلاثة، لكن علاقاته النسائية لا تنتهي، كانت تخبرني اختي "رؤى" عنهُ وعن نساءه كثيرًا، وكان دائمًا يثير اشمئزازي.

هل سأحمل ذنب تركهِ لي في يوم زفافنا إلى آخر العمر، متى سيتوقفون عن النظر إلى الأمر كما لو أنه خطيئة، لنفترض أنه جاء وأخبرني برغبته بفض هذا الارتباط، وتركني باليوم ذاته بطريقةٍ أخرى، كيف سيكون رأيهم بالأمر؟ هل يعقل أن يكون الموقف ذاته كالذي هو الآن.

نظرت إلى الدكتور، ارتشف رشفة من القهوة التي بيده، ثم نظر إليّ وقال:

*لا يمكننا افتراض أشياء لم تحدث، ومن يدري ربما كان سيحدث أسوء مما حدث، تقبلي الواقع كما هو.

أعدنا النظر إلى الزاوية ذاتها، ثم قال دون أن ينظر:

*"غفران".

-أجل.

*ماذا لو أتى "زياد" واخبركِ برغبتهِ بالانسحاب؟ هل سيكون لكِ الموقف ذاته؟

-لا أعرف، لكن على الأقل سيكون هناك سببًا أواجه به العالم، سأبكي، وسينال مني الحزن، لكن سيكون عزائي الوحيد، بأنهُ كان رجلًا.

*هل كانت له مواقف أخرى، وهرب؟

-أجل، قبل زفافنا بثلاثة أشهر، تدهورت حالتي الصحية، اضطررتُ بعدها استئصال المرارة قبل انفجارها، اتصلتُ به بعد أن تم نقلي من العمل إلى المستشفى بسيارة الإسعاف، لكنه لم يجب، اتصلتُ بعائلتي بعدها وأخبرتهم، جاؤوا جميعهم، عدا "زياد".

حين سألتُهم عنه، قالوا أنهم حاولوا الاتصال به، لكنه لم يجب.

في منتصف الليل، اتصل بي، يسألني عن سبب كل هذه المكالمات مني ومن عائلتي، فأخبرتهُ أنني في المستشفى وقد أجريتُ عملية.

*ماذا بعد؟

-ما السيناريو المتوقع لديك؟

*أن يأتيكِ في لحظتها!

-لا.

*إذن؟

-أخبرني بأنه حزينٌ لأجلي، طلب مني الاسترخاء، وانه سيأتي لزيارتي في الصباح الباكر، تمنى لي ليلة سعيدة، وأغلق.

*ماذا فعلتي؟

-بكيتُ حتى الصباح.

جاءني في العاشرة صباحًا يحمل باقة ورد، وطبق من الشوكولاتة، قبّلَ رأسي، واعتذر مني، وبرر غيابه انشغالهِ بالعمل.

*وأنتِ؟

-لا شيء، تجاهلتُ الأمر، وتقبلتُ اعتذاره.

*ما هو الشيء الذي أثار إعجابكِ به؟

-كل امرأة على وجه الأرض تتمنى الحب، تتمنى رجلًا يحبها، أيًا كانت طريقته، يكفيها أن تشعر بأن هناك رجلًا يحملها في قلبه أينما ذهب، "زياد" كان رجلي الأول، أول مرة في كل شيء، أول شعور، وأول كلمة حب، وأول نظرة، وأول لمسة يد، لقد كان الأول، كنتُ دائمًا في لحظات غضبنا اتذكر لهُ اشيائهُ الجيدة، لأنني أعرف مسبقًا أن الأفعال السيئة ستكون دافعًا قويًا لهجره، ولا أخفيك سرًا، لطالما شعرتُ بأنه كلما زاد تعلقي به، زاد هو في تكبره وجبروته، لكنه كان يملك جانبًا طفوليًا يسهلُ تشكيله كيفما أردت، كنتُ أحب هذا الجانب أكثر من أي شيء آخر، انفصال والديه كان سببًا أيضًا، كان يؤمن بقرارة نفسه أن العلاقات على مدى اختلافها وقوتها، وتمسك الطرفين ببعضهما البعض، فهي فانية لا محال، أردت أنا أن أثبت له عكس ذلك، حتى وإن كان على حساب مشاعري وبكائي، أردت حمايته من الماضي الذي يعيش بداخله.

*كيف أمكنكِ أن تكوني مجرد ظل امرأة؟

-بالحب.

بدأ الطقس يتغير، وغطت السُحب السماء، فقررنا أن تنتهي الجلسة عند هذا الحد، اكملنا السير معًا حتى وصلنا باب الحديقة، تبادلنا عبارات السلام، وافترقنا كلًا في طريقه، قبل أن تزداد المسافة بيننا، أتاني صوت الدكتور "مطر"، وهو يناديني:

*"غفران".

التفتُ إليه، واقترب مرة أخرى مني، وقال:

*تبدين جميلة بالمساحيق التجميلية، لكنكِ بدونها أجمل، جّملت ملامح الأنوثة في وجهكِ ولكنها أفسدت ملامح الطفولة، لا داعي لها.

شعرتُ بالخجل منه، ودون أن انظر إليه، قلت:

-شكرًا لك، لستُ من المهووسين بها، لكنني أردت إخفاء العيوب التي في البشرة.

*لا تخفيها، انظري لها كما لو أنك تنظرين إلى إحدى انتصاراتكِ، هذه العيوب والندوب والهالات السوداء التي خلفها كثرة البكاء هي دليل على أنكِ كنتِ خير محارب، وأن الرحلة كانت شاقة، وتطلب الأمر منكِ عناءً كبير حتى وصلتي إلى هنا، اجعليهم جميعًا يعرفون أنك امرأة قوية، لا تخشى شيء.

ابتسمتُ له، وقلت:

-حسنًا، لن أخفيها، أراك في الجلسة القادمة، إلى اللقاء.

*سأكون بانتظاركِ هنا في الموعد نفسه.

الفصل الخامس.

بعد الانتهاء من الجلسة عدتُ إلى البيت، فتحتُ باب المنزل، ودخلت.

رأيتُ أبي يجلس في غرفة المعيشة، نظرتُ إليه فقد كان يتواجد في البيت على غير موعده، وكانت أمي تنظرُ إلي بخوف، وتارةً إلى أبي.

وقفت أمامهم وسألت:

-أبي، هل أنت بخير؟

لم يجب، وقف من مكانهُ وتقدم نحوي، ولم أشعر إلا بيده وهي تلتصق بخدي، تأملتُ الموقف لبضع ثوانٍ، وقلتُ في نفسي:

-"هل صفعني والدي للتو"؟

لقد كانت المرة الأولى في حياتي كلها، أن يكون أبي قاسيًا، رفعتُ رأسي ونظرتُ في عينيه، وقبل أن أسأل، قال:

*هل ربيتكِ لترافقي الرجال، ماذا سيقول الناس عنكِ؟ أُلغيَّ زفافها وذهبت تبحث عن رجل آخر، اسمحي لنفسكِ بالحزن، انتظري قليلًا حتى تنسى الناس قصتكِ، كيف تفعلين هذا بنا؟

كنتُ أتأمل ملامحه الغاضبة واستمع إلى نبرة صوتهِ المرتفعة، دون أن أفهم كلمة مما قالها، سألتهُ:

-عما تتحدث؟

*رأيتكِ اليوم أمام باب الحديقة العامة، برفقة رجل، لم أصدق أن هذهِ ابنتي، تطلب الأمر مني وقتًا حتى أتعرف عليكِ، كنتُ أكذب نفسي وأقول لا يمكنكِ أن تفعلي هذا، لكنها أنتِ، أدركت الآن أنني لم أعرف كيف اربيكِ.

بعد ذلك تبادل النظرات مع أمي، وعاد ينظر إليّ، وأكمل حديثه:

*لا عمل لكِ بعد الآن، وهاتي هاتفكِ، لن تتحدثي إلى أحد سأريكِ كيف ستكون التربية، الحرية لم تخلق لأمثالكِ.

لا أعرف كيف مددتُ يدي إلى حقيبتي وسحبتُ الهاتف وناولته إياه، لم تكن أنا من في الغرفة، كما لو أنني طفلة في السابعة، تُعاقب على ذنب لا يد لها فيه، كنتُ أتأمل والدي، الذي لم يكلف نفسه عناء السؤال عن الرجل، ماذا كنتُ أفعل، ومن يكون، كان عليهِ أن يسألني، لقد كانت المرة الأولى لأبي يصدرُ فيها حكمًا دون أن يسمع الحقيقة، يبدو أن ذلك الزفاف أفقدني ثقتهُ بي.

*عودي إلى غرفتكِ، لا أريد رؤية وجهكِ بعد الآن، لقد أفسدكِ دلالي يا "غفران".

لملمتُ أشيائي وتوجهتُ إلى غرفتي، أحمل حقيبتي وألمًا يفوق حجم الجبال، رميتُ نفسي على السرير، عانقتُ الوسادة وبكيت، بكيت كل شيء كما لو أنني أبكي لأول مرة.

"تسرع أبي في حكمه، ماذا فعلتُ بك يا" زياد"، أي ثأرٍ كان بيننا لتنال مني بهذه الطريقة، أفسدت كل شيء، كما لو أنك كنت عاقدًا للعزم على فعلتك، كيف تخليت عني، لم تكتفي بحرماني منك، الآن تكمل جريمتك تحرمني من أبي، وعائلتي، كيف أخبرك أنك قاسيًا، وأنني نادمة أشد الندم على سماحي لك بدخول حياتي، إلى متى ستتوقف عن كونك الذنب الذي أُعير به في كل مكان وأي وقت".

بدلتُ ملابسي، غسلت وجهي من آثار البكاء، توقفتُ أمام المرآة وتذكرتُ حديث الدكتور عن الندوب التي في وجهي، تحسستُ وجهي، وهالاتي السوداء، والحبوب التي ملأت وجهي.

" يبدو أن هذه الحبوب كلما أرادت أن تغادر وجهي، يحدث شيء ويعيدها أكثر، وتلك الهالات لن تغادر، فالبكاء يرفض مغادرتي".

استلقيتُ في سريري، وتأملت السقف، عادت لي الذكريات منذ أول لقاء جمعنا، حتى اللحظة الأخيرة، تذكرت ملامح وجهه كما لو أنه يقف أمامي،

سألتُ نفسي ماذا قد يفعل الآن؟ هل تزوج؟ هل ينام جيدًا بينما هناك امرأة تبكيه كل ليلة، وتخبر الله عنه؟ هل يبكي؟ هل يشعر بالندم؟

لا أظنه فاعلًا، وإلا فقد عاد.

فجأة تبدلت ملامح وجهه إلى ملامح الدكتور "مطر"، حديثنا الأخير، لباقته في التعامل، صوته الهادئ، نظراته الدافئة، كان مطرًا دافئًا يروي القلب.

طردت تلك الأفكار من رأسي، وفتحت دفتر الرسم وبدأت برسم خطوطٍ غير مفهومة، حتى تحولت اللوحة فجأة إلى ملامح الدكتور "مطر".

سألت نفسي:

-ماذا تفعلين يا "غفران"؟ هل جننتِ؟

إنه طبيبكِ ليس أكثر، لا تعرفينه، ولا يمكنكِ المحاولة، ألم تكن الضربة الأولى لكِ كافية لتجعلكِ تغلقين أبواب قلبكِ، توقفي عن التصرف باندفاع، لقد هُزمتي بسبب هذا الاندفاع من أقرب الأشخاص.

أغلقت الدفتر، وخبأته في مكتبي، وعدتُ إلى سريري، تناولت الحبوب المهدئة، وغفوت.

استيقظتُ صباحًا على صوت أمي وهي تطرق باب الغرفة تطلب مني أن افتح لها، غادرتُ سريري بكسل، فتحت الباب، دون أن انظر إليها مشيتُ نحو سريري مرة أخرى، امسكتُ بالغطاء، وغطيتُ رأسي، رفعتهُ أمي من جديد، وبصوتٍ أقرب إلى الغصب:

*ماذا تظنين نفسكِ فاعلة يا "غفران"؟ وكيف تتصرفين هكذا؟

اعتدلتُ في جلستي، واقتربتُ منها وقلت:

-يمكنكِ صفعي مثل أبي.

مسحت على رأسي، وأعقبت:

*ألا نملك الحق بالخوف عليكِ يا ابنتي، نحنُ نحميكِ.

-من ماذا؟ هل زيارتنا الى الطبيبة النسائية كانت لأجل حمايتي أيضًا، وصفعي بالأمس كانت لحمايتي؟ هل كان رفضكِ "لزياد" لحمايتي؟

هل تسمون هذه حماية؟ أمي هل حقًا لا تعرفون ماذا ربيتم؟ منذ متى كانت طريقة أبي في التربية هي الضرب؟ أنا "غفران" يا أمي، أصغر بناتكِ، ما ذنبي بفعلته، تعاقباني أنا لماذا؟ هل أنا من طلبت منهُ المغادرة، هل أنا من أرادت تدمير حفل زفافها؟ كيف ظننتم أن جرح قلبي قد برأ لأبحث عن رجل جديد ليدخل حياتي، لما لم يسألني من يكون هذا الرجل؟

*من يكون ذلك الرجل؟

-لا أريد الحديث الآن، ارجوكِ دعيني وشأني! أشعر بالصداع، حين يأتي أبي اخبركم بكل شيء، لا تقلقي.

غادرت أمي الغرفة، أغلقت الباب خلفها، وبقيتُ وحدي في الغرفة، كان الجو هادئًا جدًا، قطع هذا الهدوء رنين جرس الباب، تظاهرتُ بالنوم حين عرفتُ أن إخوتي الثلاثة قد أتوا لزيارتنا، لا بد وأن أمي قد اتصلت بهن.

دخلت "رؤى" إلى غرفتي، طلبت مني النهوض للحديث، ففعلت، بدأت حديثها وقالت:

*لا حاجةٍ لي بتبرير قول زوجي وطلبه، لم أكن أعلم بالأمر، وإن كنتُ على علمٍ به تعلمين أنني لن أقبل شيئًا كهذا، هذا أولًا.

ثانيًا: ما الذي حدث مع والدي؟

-لا شيء، فقط قام بصفعي.

*لماذا؟

- رآني في الحديقة العامة، برفقة الدكتور "مطر".

*هل أخبرتهِ بالأمر؟

-ليس بعد، لا رغبة لي بالحديث، هذه الفترة كانت مرهقة، كلما أشعر بأنني بدأت أخرج إلى النور، يحدث شيء ويعيدني إلى الظلام، حيث نقطة البداية.

بعدها قمتُ من مكاني، وتوجهت إلى خزانتي، اخرجتُ منها حقيبتي ثم بطاقة الدكتور "مطر"، مددتها إلى أختي، وقلت:

-هذا رقم الطبيب، أبي يمنعني من الخروج، أريدُ منك حالما تخرجين من هنا أن تتصلي به، اخبريه أن ظرفًا قاهرًا يمنعني من الحضور في الفترة المقبلة، إياكِ أن تخبريه عما حدث، سأفعل أنا ذلك بنفسي.

*حسنًا، ماذا ستفعلين؟

-لا شيء، سأتحدث مع والدكِ لكن ليس الآن، عليه أن يفكر قليلًا هو أيضًا، بعدها نتحدث، دعينا نخرج إلى البقية، لنشرب القهوة معًا، سأحضرها واتبعكِ.

خرجنا من الغرفة حيث يتواجد أمي وإخوتي، تناولنا القهوة معًا، تبادلنا أطراف الحديث، حتى جاء والدي، حين سمعتُ صوت المفاتيح في الباب، توجهتُ مباشرة إلى غرفتي، لا يمكن لعينيّ أن تلتقي به خاصةً خلال هذه الأيام.

عدتُ إلى الغرفة، اتأمل اللاشيء شعرتُ أن رأسي فارغًا، في الوقت ذاته مليء بالحديث الذي لم يقال، فكرتُ بكم ستكون مدة السجن الذي فرضهُ عليّ والدي، ماذا يجب أن أفعل، وكيف أخبرهم بحقيقة الأمر.

توجهتُ إلى دورة المياه توضأت وفتحتُ المصحف لأقرأ بعض الآيات القرآنية، حين فتحتهُ وقعت عيني على قوله سبحانهِ وتعالى:" لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا

أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ"

لم أشعر بنفسي وأنا أبكي حين كنتُ أقرأها، بعدها أغلقتُ المصحف ورفعت يدي إلى السماء، وقلت:

-يا الله، اذكر حديثي الأخير معك، حين جلستُ في هذا المكان، وكنتُ

أبكي شكرًا، وإجلالًا لأنك رزقتني حبه بالطريقة التي ترضيك، يا الله أنت الذي يعلم ما تخفيه القلوب، وكم من مرة دعوتك ألا تحرمني إياه، وكم من مرة دعوتك أن تقيني شر النفوس، والناس، لم أعلم أنه الشر الذي دعوتك لتبعده عني، لا اعتراض على حكمك، لا أبكي اليوم وادعوك لتعيده إلي، بل لتنسيني ذكره، ليصبح الأمر كما لو أننا لم نلتقي أبدًا، يا إلهي أنت الذي تعلم ما يعانيه قلبي"

نهضتُ من مكاني، وعدتُ إلى السرير، فكرت بأن أتناول من الحبوب المهدئة، وتذكرت قول الطبيب بأنني لستُ بحاجتها، أعدتها إلى مكانها، ونمت في سريري، جاءت أمي لتطمئن على حالي، تحملُ معها وجبة الغداء، تركتها بجانب السرير وغادرت دون أن تنطق بكلمة، نهضتُ من فراشي، تناولت الطعام الذي تركتهُ والدتي، وأعدتُ الأطباق إلى مكانها، وغفوت.

الآن وقد مضى أسبوعان على سجني، لا شيء يذكر خلال هذهِ الفترة، ألتقيتُ بأبي مرة او اثنتين لكننا لم نتحدث، حاولت "رؤى" اخبارهِ بحقيقة الأمر، لكنني منعتها، لا أريده أن يعرف من شخصٍ آخر.

عاد هذا اليوم باكرًا، تناول غداءه وجلس يتناول الشاي برفقة أمي، كانا يشاهدان فيلمًا، ويضحكان.

دخلتُ إليهم، وجلست أمامهم مباشرة على الأرض، قبلتُ يده، لكنه قام مباشرة بسحبها من بين يدي، ولم ينظر إلى عينيّ.

بدأت الحديث بدموعي، وقلت:

-كان من الأفضل لو أنك قمت بسؤالي عن ذلك الرجل، تعرف جيداً أنني لم أكذب ولا مرة، وكنتُ دائمًا، دائمًا أخبرك بالحقيقة كما هي، حتى وإن كلف الأمر أن تقاطعني لأيام، ابنتك لا تجيد الكذب.

*....

-حسنًا، ذلك الرجل يدعى "مطر"، إنه طبيبي النفسي المسؤول عن علاجي من الاكتئاب الذي أصابني، أخضع للجلسات منذ أكثر من ثلاثة أشهر، بعد محاولتي للانتحار، حين قمت باصطحابي إلى تلك الطبيبة، فكرت بالأمر كثيرًا، قبل أن اتخذ خطوةً كهذه، ما دفعني إليها أكثر، حديثك معي، حين قلت لي بنفسك بأنهُ عليّ أن اغفر واتجاوز، وانسى، أردتُ إنقاذ نفسي، أن أتعلم كيف أنسى وكيف يكون التجاوز، لم يكن من السهل ما مررتُ به، وأعرف أنكم عانيتم مثلي وأكثر، لذلك لم أخبر أحدًا بالأمر، هذهِ المرة كانت الحرب وحدي، كان الأمر يعنيني بأكمله وحدي، ففضلت أن أقف بجانب نفسي، وأساعدها كي تقف من جديد، وأعرف مسبقًا أنك لن تتوانى عن مساعدتي، وأنك هنا لتحميني، لكني أتعبتك كثيرًا، وأمي أيضًا، كانت تقلق دائمًا لأجلي وتبكي، لم يكن "زياد" وحدهُ المذنب بل أنا، اندفاعي لأجله دائمًا هو من أوصلنا لهذهِ اللحظة، سامحني يا أبي.

أمسك أبي بوجهي، وقبل رأسي، وبكى، كانت هذه المرة الثانية التي يبكي فيها أبي أمامي لأجلي، بعدها عانقني، وبكينا معًا، قبلتُ يده ويد أمي وطلبتُ منهم أن يسامحاني، وأن يمنحاني بعض الوقت، وقطعتُ لهم وعدًا بأنني سأكون بحالٍ أفضل.

جلسنا بعدها ثلاثتنا في غرفة المعيشة، جلستُ في المنتصف، وكنت أعانق أبي، فقد اشتقت لعناقهِ كثيرًا، الآن فقط شعرتُ أن جبالًا من الحزن قد غادرت صدري، تملكت قلبي راحةً لم أشعر بها منذ مدةٍ طويلة.

قال أبي:

*ستعودين وتكملين جلسات العلاج، لا تتوقفي، لكن أريد منكِ وعدًا أن نكون دائمًا أول من يعلم بما يحدث معكِ، لا تخفينّ شيئًا عنّا.

-أعدك بهذا، سأتصل بالطبيب بعد أن تعيد لي هاتفي وأطلب منه موعدًا.

*إنه في خزانتي، اذهبي واستعيديه.

قبلتُ رأسهُ، وتوجهتُ إلى غرفته، أخذتُ هاتفي، ودخلتُ غرفتي، كان شحنه قد نفذ، فلم استخدمهُ منذ اسبوعين.

قمتُ بفتحه، وانتظرتُ قليلًا، وصلني كمًا هائل من الرسائل، نظرتُ إليها، كانت أكثرها من الطبيب، بعض الرسائل من العمل، ورسالة واحدة من رقمٍ مجهول.

قمتُ بفتح محادثة الطبيب، ارسلتُ له رسالة، أخبرهُ فيها أنني بخير، وسأكون في انتظارهِ غدًا في الحديقة، بعدها قمتُ بالرد على الرسائل من العمل، وتجاهلت الرسالة التي من المجهول.

هذهِ الليلة، كانت من الليالي المميزة التي أعيشها، لقد أعادت لي جزءًا مسلوبًا مني، أعادتني "غفران" ابنة أبيها.

استيقظتُ باكرًا، قمتُ بتحضير طعام الفطور، أيقظتُ أمي وأبي، واخبرتهم أنني سأكون بالانتظار، على طاولة المائدة.

تناولنا الإفطار معًا، أخبرتُ والدي عن موعدي مع الطبيب قبل خروجهِ، قبّل رأسي، وتمنى لي يومًا سعيدًا، وغادر.

ساعدتُ والدتي بترتيب المنزل، وبعدها عدتُ إلى غرفتي لأحضر نفسي، تأملتُ وجهي في المرآة، هذهِ المرة، بعين الحب والرضا، لقد بدوتُ أكثر إشراقًا، تخليتُ عن المساحيق، واكتفيتُ بأشياء بسيطة.

توجهتُ إلى الحديقة، اشتريت كأسين من القهوة، وجلستُ انتظر، لقد جئتُ مبكرًا، لا يهم، جلستُ على الكرسي الذي جلسنا عليه آخر مرة، لوهلةٍ شعرتُ بأن مجيئي هذهِ المرة لم يكن لأجل العلاج فقط، لقد كان لأجله.

وصل بعد دقائق، وقفتُ في مكاني أتأمل ملامحه وهو يقترب، لم يكن كما عهدته، كان يبدو عليه الحزن، ضل يقترب ويقترب حتى لم يعد يفصل بيننا سوى بضع المترات، مددتُ لهُ كأسًا من القهوة، وقلتُ له:

-تفضل.

مد يده ليتناول الكأس مني، كان يرتدي خاتمًا، فسألت:

-أراك ترتدي خاتمًا؟

نظر إليّ بضع ثوانٍ، ثم أستدار نحو البركة، وقال:

*تمت خطبتي.

بدهشة بدت واضحة على صوتي وملامحي:

-مبارك، اتمنى لك حياة سعيدة.

*شكرًا لكِ، شكرًا على القهوةِ أيضًا.

ارتشف رشفة من القهوة، ثم جلس على الكرسي، وجلستُ أنا من بعدهِ وقال:

*إذن، ما سبب غيابكِ هذه المدة؟

-ألم تتصل بك "رؤى"؟

*بلى، لكنني أفضل سماع ذلك منكِ أنتِ.

-رآنا أبي حين كنا هنا، ظن أنني أرافقك، غضب كثيرًا، قام بصفعي على

وجهي، وقال لي كلامًا كثيرًا، منعني من الخروج، وأخذ هاتفي مني.

لم أخبره بالحقيقةِ مباشرةً، تركتُ كلانا يفكر جيدًا، ولم أشأ أن نتحدث في لحظتها، أجلتُ الحديث حتى رأيت نفسي قد صرتُ جاهزةً للحديث عن الاكتئاب والعلاج، وعن كل شيء، اعتذر مني بعد ذلك، وعاد كل شيء كما كان عليه.

*يؤسفني ما حدث بينكم، لكنني سعيد لمعرفتهم بالحقيقة، سيساعد هذا في تخطيكِ للأمر، إذن كيف العمل؟

-لا جديد، سأعود غدًا.

*هذا جيد، و "زياد"؟

-لا أعرف، لم يعد الحديث عن الأمر بالصعوبة ذاتها كما قبل، تستمر حياتي كما كانت قبل أن نلتقي، لا اتذكره إلا أن أتى أحدًا على ذكره.

لستُ غاضبة، لم يعد يعنيني سبب غيابه، أشعر بالشفقة تجاهه أكثر من الغضب، أتمنى لو كان بإمكاني أن أخبره هذا وجهًا لوجه.

*سعيدٌ لأجلكِ.

-شكرًا لك.

ألتزمنا الصمت لدقائق، غرق كلًا منا في خيالهِ، أو غابت الكلمات عن اللسان، نظرتُ إليه بتركيز، في حين كان هو ينظر في الفراغ، تأملت ملامحه الحزينة، لا يبدو كما ألتقيتهُ أول مرة، لا يبدو كرجلٍ تمت خطبته منذ وقتٍ قريب، بصوتٍ أقرب للهمس، قلت:

-هل أنتَ بخير؟

*لماذا؟

-لا تبدو هكذا، واعتذر إن كان سؤالي تطفلًا.

*لا عليكِ، هو فقط العمل، كان مرهقًا في الفترة الأخيرة.

-من تكون خطيبتك؟

*صديقتي من الجامعة.

-هل جمعتكم قصة حب؟

*ليس تمامًا، لا تحبني الحب الذي نسمعه، وأنا كذلك، لكن كلانا قرر أن يتخذ خطوةٍ كهذه، تعرفني جيدًا وأعرفها أنا جيدًا، فعلنا هذا فقط لنتخلص من ثرثرة أمهاتنا بشأن الزواج.

-كيف لك أن تفعل هذا؟

*لا أعرف، كنا نتناول طعام الغداء معًا، تحدثت معي بشأن والدتها التي لا تكف عن الحديث معها بشأن الزواج، العمر الذي لا ينتظر أحدًا، قطار الزواج الذي سيفوتها، وأخبرتها عن أمي، في بادئ الأمر ضحكنا، ثم خطرت ببالها فكرة الارتباط الشكلي كما أسمته، لعل هذا الشيء يجعل والدتها ووالدتي تكفان عن ملاحقتنا.

-أتمنى لك حياةً سعيدة.

*شكرًا لكِ.

الفصل السادس

أنا "غفران"، مضى ثلاثة أشهر على حديثي مع الطبيب "مطر"، حين أخبرني عن خطوبته، كانت تلك هي المرة الأخيرة التي نلتقي بها، ارسلتُ له رسالة أخبرتهُ فيها بأنني بحالٍ أفضل وأرغب بإيقاف الجلسات، ولم يمانع، فقد أخبرني بأنني لستُ بحاجةٍ لها بعد الآن، لكنهُ قال أنه سيكون دائمًا هنا ليستمع إليّ، ليس بصفته طبيب، إنما" مطر".

أشغلتُ نفسي في العمل، والعائلة، ما مررت به كان كافيًا لأدرك أن حب العائلة لا يمكن أن يعوض، وأن الأزمات التي نظنها تبعدنا ما هي إلا وسيلة لنتماسك، تحسنت علاقتي بأصدقاء العمل، وكونتُ صداقاتٍ جديدة، تخليتُ عن كل شيء له علاقةً بالماضي، "زياد" كما هو في عداد الغائبين لا شيء منه ولا شيء عنه، أظنه قد مات، بجميع الأحوال أقمتُ لهُ عزاءًا في قلبي، وتخلصتُ من كل الأشياء التي تعنيه، صورتهِ الوحيدة أعادتها لي أمي، أحرقتها مع الأشياء الأخرى، بدأت العمل لحسابي الخاص، وظفتُ الرسم في أشياء كثيرة، منها الخيرية، وأخرى لجهاتٍ خاصة.

الصيف بدأ، تبدو الحياة أكثر إشراقًا.

يصادف اليوم "الجمعة"، استيقظ كل من في البيت باكرًا، كانوا إخوتي جميعهن في منزلنا، بدأنا بتحضير طعام الغداء مع أمي، أما أبي وأزواج إخوتي فقد ذهبوا جميعهم إلى المسجد.

تناولنا الطعام معًا، بعدها قمنا بصنع الشاي، وتناولناه على الشرفة، ارتديتُ ملابسي وخرجتُ برفقة إخوتي وأبنائهن إلى مدينة الألعاب، فقد كان هذا اليوم يصادف عيد ميلاد "رُشد" الثالث.

استمتعنا كثيرًا، يومها عدتُ طفلة، تخليتُ عن رداء النضج هذا اليوم، ورافقتُ الأطفال، كما أنني قمت بالرسم على وجوههم.

عدتُ إلى البيت، وغادروا جميعهم إلى منازلهم، ودخلتُ إلى غرفتي لأنام، قبل أن أغفو اتصل بي رقمًا مجهولًا، أغلقتُ الهاتف وأكملت نومي.

استيقظتُ صباحًا، ارتديتُ ملابسي وتناولتُ طعام الفطور مع أمي على عجل، فقد كان الوقت قد تأخر على العمل، ودعتها وتوجهتُ نحو الباب، فتحتُ باب الشقة لأجده يقف أمامي مباشرة، لقد عاد "زياد".

لم أصدق ما رأتهُ عيناي، أعدت إغلاق الباب، ودخلتُ إلى المنزل أنادي أمي، أمسكت بي من ذراعيّ وأخذت تردد البسملة عليّ، وقبل أن أخبرها بما رأيت، رن جرس الباب، همت لتفتحه، أمسكتُ بها وقلت بخوف:

-لا تفتحيه، ارجوكِ.

*ما بكِ يا "غفران"؟

وتركتني وذهبت لتفتح، وصلتني شهقتها من هول ما رأت، لقد كان "زياد"، فجأة ارتفع صوتها، وصرخت توبخه، بعدها اغلقت الباب في وجهه.

وعادت إليّ عانقتني وحاولت تهدئتي، كنتُ أبكي، لا أعرف السبب لكنني في تلك اللحظة فقدت توازني، وهذا أخاف أمي، سألتها:

-ماذا قال؟

*لم أمنحهُ فرصة، صفعتُ الباب في وجهه.

-جيد، كيف سأخرج للعمل الآن؟

*انتظريني، سأرتدي ثيابي وأرافقكِ.

-حسنًا.

ارتدت أمي ثيابها وخرجنا بسرعة، تبين لنا فيما بعد أنهم قد قاموا ببيع الشقة، وجاء لاستكمال الإجراءات وأخذ ما يلزم منها ثم يغادر.

رافقتني أمي طوال اليوم في العمل، لخوفها أن يتبعني إلى هنا.

انتهيتُ من العمل وعدنا إلى البيت معًا، اشترت لي المثلجات في طريق العودة، وقمنا بشراء طعام الغداء، فلا وقت لإعداده في المنزل، وصلنا إلى الشقة، كان أصحاب المنزل الجديد يرتبون أشيائهم، حمدتُ الله في سري أنه لم يعد، ولم يسكن هنا من جديد.

أخبرت أمي ما حدث لوالدي على طعام الغداء، كانت تتحدث وأنا استمع، كنتُ أجلس بجسدي فقط، بينما عقلي في مكانٍ آخر، قاطع شرودي صوت أبي وهو يناديني:

*"غفران".

-أجل.

*هل أنتِ بخير؟

-لا أعرف، لماذا عاد في هذا الوقت تحديدًا؟

*لا يهم، فعودتهِ كغيابه، لا تعنينا، يعنيني من كل هذا أنتِ.

-لا تقلق، أنا فقط أدهشتني رؤيتهِ بعد هذهِ المدة.

*لست قلقًا، أنتِ ابنةُ أبيكِ.

ضحكتُ لأبي وحاولت أن أتظاهر بتناول الطعام، لكنني كنتُ في مكانٍ آخر.

عدتُ إلى غرفتي على صوت رنين الهاتف، أمسكتُ به، وكان الرقم المجهول ذاته، هذه المرة عرفته، لقد كان هو.

ترددت بالإجابة، لكنني تذكرتُ جملة قالها الدكتور "مطر" ذات مرة "نحنُ لا نعرف ما دوافعه للغياب، عليه أن يعود لنعرف، وكل غائبٍ إن لم يكن ميتًا سيعود"، قبل أن أجيب كانت المكالمة قد انتهت، نظرت إلى الرقم، فقد كان ذات الرقم الذي أرسل رسالة قبل مدة، حين كان الهاتف مع أبي.

في الصباح غادرتُ سريري باكرًا، لم أستطع ليلتها أن اغفو وأنا افكر، ذكرياته عالقة برأسي تأبى المغادرة، ارتديت ملابسي وخرجت باكرًا، تجولتُ في الطرقات، اشتريت لنفسي كوبًا من القهوة، وتوجهتُ للحديقة، حلستُ بما يقرب الساعتين، وأنا أتأمل وأفكر يا ترى ما الخطوة التالية يا "زياد"؟

غادرت الحديقة، وتوجهتُ إلى عيادة الدكتور "مطر"، فقد حاولت الاتصال به لكن هاتفه كان مغلقًا، أردت اخباره بما حدث، وماذا عليّ أن أفعل، وصلت لكن المكان لكن تم إغلاقه، سألت الحارس:

-لو سمحت، هل أغلق الطبيب عيادته؟

*نعم.

-لماذا؟

*لقد سافر قبل شهرين، ولن يعود هذا العام، فقرر إغلاقها لحين عودته.

-حقًا، شكرًا لك.

الدكتور "مطر" مسافر، لماذا؟ هل تزوج؟

عاد الرقم بالاتصال من جديد، هذه المرة، أجبت حاولت أن أحافظ على ثبات صوتي، وقلت:

-مرحبًا.

*كيف حالكِ؟

-بخير، شكرًا لك، ماذا هناك؟

*أريد رؤيتكِ، لمرةٍ واحدة فقط.

-ما الذي تريد رؤيته يا "زياد"؟

*أنتِ.

-اعتذر، لا يمكنني ذلك.

*أرجوكِ، امنحيني فرصة واحدة، كما كنتِ تفعلين دائمًا.

ضحكتُ لجملتهِ الأخيرة باستهزاء، وأعقبت:

-إذن كنت تعرف أنني دائمًا ما أمنحك الفرص، لهذا طلبت مني هذا الآن!

*ليس لأجل هذا فقط، بل لأجلنا نحن.

-"زياد".

*أجل.

-لا يوجد ما يسمى ب "نحن"، سأفكر بالأمر وأتصل بك، لا تتصل بي حتى ذلك الوقت.

*حسنًا، لكن ارجوكِ بألا تتأخري.

-حسنًا.

أغلقت الهاتف، وأكملت السير في الطرقات، حتى وصلت البيت، ألقيتُ التحية على أمي، ودخلت إلى غرفتي أبدل ملابسي، جاءني صوت أبي وهو ينادي، خرجت من الغرفة لألبي نداءه.

*"غفران".

-نعم.

*كيف حالكِ؟

-بخير، ما بك؟

*اتصل بي "زياد"، هذا الصباح، طلب مني رؤيتكِ.

-اتصل بي أنا أيضًا.

*ماذا قررتِ، لا تقولي بأنك ستفعلين؟

-لا أعرف، لكنني أظن أن هذه اللحظة ستأتي آجلًا أم عاجلًا، لا تقلق، لن أمنحه فرصة ليدخل حياتي من جديد، أنا فقط لدي حديث أريد أن أقوله، وأعدك أنني سأغلق هذهِ الصفحة حتى آخر لحظة بعمري.

*أنا أثق بكِ، افعلي ما تريدينه، لكن بلا اندفاع، تروي يا ابنتي.

-لا تقلق.

بعد ثلاثة أيام، اتصلت به واخبرته عن الموعد والوقت.

تعمدتُ أن اتأخر في يومها، أعرف جيدًا أنه يغضب إن لم يلتزم أحد في موعدهِ معه، لكنني الآن أملكُ فرصةً ذهبية للانتقام البارد، حضرتُ نفسي بتأنٍ، استأذنت من والداي، وخرجت من البيت.

وصلتُ بعد الموعد بنصف ساعة، كان يجلس هو في المقهى، كان يضع بدأه فوق الطاولة وتشابكت أصابعهِ ببعضها، كنتُ أعرف دائمًا غضبهِ من تلك العلامة، ألقيت عليهِ التحية وجلست قبالته.

بعد صمتٍ قصير، قال:

*ماذا أطلب لكِ؟

-شاي.

*حسنًا.

طلب كوبًا من الشاي لي، وقهوة له، وعاد الصمت يسكن المكان من جديد، كنت أنظر إلى ملامح وجهه وكيف نال منها الزمن، بينما هو كان ينظر في كل الاتجاهات عدا عن التي أجلسُ فيها، كانت عينيه تهرب مني كلما ألتقت بعينيّ، خوفًا، وقلقًا، وارتباكًا، بادرتُ بالحديث، وقلت:

-تغيرت كثيرًا خلال هذا العام.

*وأنتِ كذلك، تبدين أكثر ثقةً بنفسكِ، وازداد جمالكِ.

-لستُ هنا لأسمع حديثٍ كهذا، لماذا طلبت رؤيتي؟

*لنتحدث عنّا.

-أخبرتكَ قبلًا، ليس هنا ما يجمعنا لنتحدث به، كلانا أختار طريقه.

*"غفران"، أنا...

قاطعتُ حديثهُ، واكملت:

-أنت أسف، ماذا بعد؟ لا شيء، "زياد"؟ هل يمكنكَ أن تخبرني كم مرة كنت تقول لي أنا أسف؟

*...

-أنت لم تقل سوى هذهِ الكلمة منذ أن ألتقينا.

*...

-لستُ هنا لأسمع مبرراتك، كان يمكن أن أفعل هذا لو جئت مبكرًا أكثر، لكنك كنت دائمًا تفوت الفرص، تظن أن الوقت ينتظرك، لكن الحقيقة ليست هكذا، الوقت لا ينتظر أحدًا، لطالما تمنيتُ أن تكون ميتًا، كي لا أجلس أمامك الآن، كنتُ أعرف مسبقًا أن هذا اللقاء سيحدث، رغم ذلك لم أقم بتحضير الحديث الذي أريد قوله، كنتُ أظن أنني سأجلس أمامك واستمع لحديثك، لمبرراتك، والتي كلانا نعرف أنها لن تكون كافية، الاعتذار لا يليق أبَدا بما فعلتُه معي، أنت لم تكسر لي قلمًا، أو نافذة غرفتي، لقد كان قلبي يا "زياد"، أنت فعلت أكثر الأشياء إخافة في الوجود، رجلًا مثلك قد يفعل أي شيء، دون أن يرف له قلب.

*...

-هل جئت هنا لتصمت؟

*لا أجد كلمة تناسب الموقف.

-لماذا إذن طلبت رؤيتي؟

*لتغفري لي.

ضحكت باستهزاء واعتدلتُ في جلستي، وقلت:

-حين كنت في الإعدادية، كانت تصنع لي أمي الشطائر التي أحبها وتضعها في حقيبتي وحين يحين موعد الاستراحة، لا أجدها، كانت تُسرق مني، وكنتُ أعود إلى أمي اشكرها على الشطائر وأتظاهر بأنني تناولتها، لم أخبرها ولم أخبر أحدًا حتى هذه اللحظة، تكررت السرقة، حتى عرفت أنها صديقتي التي تجلس بجانبي، لم أصارحها بمعرفتي، لكنني طلبتُ من والدتي إعداد المزيد، لم أكن أريد أن سبب لها الإحراج، وتظاهرت بعدم معرفتي، لكنها لم تكتفي، فكانت تسرق وجبتي أيضًا، هكذا حتى انتهى العام، وأنا لا أتناول الشطائر التي تعدها أمي، أفكرُ أحيانًا، ماذا لو جلستُ أمامها وأخبرتها بالحقيقة، ماذا لو لم اسمح لها من البداية بأن تسرق ووضعتُ لها حدًا يمنعها من أن تفعل هذا، صديقةً أخرى في الثانوية، تظاهرت أمام الجميع بأنها المقربة لي، في إحدى الأيام، سمعتها تتحدث بالسوء عني، ولم يجرؤ أحد بالدفاع عني لأنهم يعرفون أنها الأقرب لهذا فهي صادقة، حتى هذهِ كأنني لم أسمع شيئًا، واستمرت صداقتنا أمام الجميع، وازداد كرهها لي في داخلها.

حتى جئت أنت، مرة تحبني وأخرى تكرهني، وإن لم تخبرني بهذا حقيقة فكانت أفعالك معي تتحدث، لا تختلف عن صديقاتي من الابتدائية والثانوية،

جميعكم تأمرتم على إيذائي، وجميعكم لم يفكر بماذا لو علمت "غفران" بالحقيقة، هل تعلم لماذا حدث كل هذا؟

*لماذا؟

-لأن لكلِ امرئٍ من اسمه نصيب، وأنا اسمي "غفران"، لكن يؤسفني جدًا، أن رصيدك من المغفرة والحب قد نفذ، أنا حرةً منك ومن مشاعري نحوك، شكرًا لك لمنحي فرصةً لقول كل هذا الحديث، فقد كان حَملهُ في قلبي كل تلك السنوات ثقيلًا.

*"غفران".

-عليكَ أن تنسى أنك ألتقيت بامرأة تحملُ هذا الاسم، أنا غريبةً عنك، ولا أعرف أبدًا، اتمنى لك حياةً سعيدة، تجد بها امرأة تشبهك، سيكون هذا عذابك في الدنيا، ولن أغفر لك فعلتك مهما فعلت، لا أريد رؤيتك بعد الآن ولا تتصل بي.

غادرتُ المقهى مسرعة، تاركةً خلفي" زياد"، تأكلهُ أفكارهُ وحديثي الأخير، إنه "زياد" الذي يكره المرأة القوية، سليطة اللسان، تلك التي تعرف كيف تأخذ بثأرها وهي في قمة هدوئها، حين كنتُ أمامهُ قبل قليل، شعرتُ بأنني لستُ بحاجةٍ لمعرفة السبب وراء غيابه، كان شعورًا نابعًا من قلبي، ليس لأحافظ على كبريائي، "زياد" لا يعنيني، كان مجرد صفحةٍ في دفتر حياتي، أغلقتها منذ هذهِ اللحظة حتى الأبد.

اشتريتُ الحلوى قبل عودتي إلى البيت، باقة وردٍ لأمي، اتصلتُ بأخواتي وقمتُ بدعوتهن على العشاء، عدتُ إلى البيت، قمت بتشغيل الموسيقى اخترتُ أغنية "حلوة الدني"، قبلتُ أمي وعانقتها، وقدمتُ لها الورود، بدأت بترتيب المنزل، طلبتُ من أمي أن تستريح هذا اليوم، وسأفعل أنا كل شيء، دخلت إلى المطبخ، مر وقتًا طويل لم أدخله، بدأتُ بتقطيع الخضار، وأنا أردد كلمات الأغنية مع مغنيها، وصلت "رؤى" أولًا، وجاءت لتقديم المساعدة، عانقتها فور لقائنا أخبرتها أنني سعيدةً جدًا هذا اليوم، كما لو أنني ولدتُ من جديد.

-أشعر براحةٍ يا "رؤى"، لم يسبق وأن شعرتُ بها.

*لماذا؟

-التقيتُ "زياد"، هذا اليوم، قلتُ له كلامًا كثير، أخبرته أنني لا أريد رؤيته، سعيدة لأنني أدركتُ أخيرًا أنني لستُ بحاجةٍ اوجودهِ في حياتي، وأنني توقفتُ عن الانتظار منذ مدة طويلة.

*سعيدة لأجلكِ يا أختي.

-لكنني حزينة لسببٍ أخر.

*ماذا حدث؟

-قمتُ بزيارة عيادة الطبيب، لكنها مغلقة، ورقمهِ أيضًا، أخبرني الحارس أنه قد سافر.

*هل تعرفين لماذا؟

-لا لم أسأل.

*هل هو صديق في منصات التواصل الاجتماعي؟

-كلا.

*بماذا تفكرين؟

-افكر بماذا لو تزوج؟

*إذن؟

-كيف يتزوج بامرأة لا يحبها؟

*ربما يحبها، ولم يخبركِ!

-ولمَ قد يخفي شيئًا كهذا؟

*ولمَ قد يخبر الطبيب مريضةً لديه بشيءٍ كهذا؟

"غفران"، انظري إليّ.

نظرتُ إلى "رؤى"، وكادت أن تسأل لكن أمي دخلت فجأةً إلى المطبخ، شكرتُ الله في سري أنها لم تسأل، كادت أن تكتشف الأمر، وتدرك أنني معجبة به.

وصل أبي، تناولنا طعام الغداء معًا، ثم تناولنا القهوة، وغادرت كل واحدة منهن برفقة زوجها، جلسنا في المساء معًا نشاهدُ فيلمًا، سألني أبي عن لقائي ب "زياد" أخبرتهُ ما حدث وأنني أغلقتُ الباب في وجهه، وسألني عما إذا كنت بخير، فأجبت بالإيجاب، بعدها استأذنتُ للعودة إلى غرفتي.

فتحتُ هاتفي بدأتُ بالبحث عن اسم "مطر" في تطبيق الفيسبوك ووجدتُ صفحته الشخصية، كان يضع صورتهُ في الحديقة العامة التي كنا نلتقي بها، قمتُ تكبير الصورة، وكان خاتم الخطوبة هو أول ما وقعت عيني عليه، كان في حالته الشخصية قد وثق خطوبته، مع اسم المرأة التي اقترن بها، تجولتُ في صفحتهِ قليلًا، تمنيتُ لهُ في سري حياة سعيدة، أغلقت الهاتف، وغفوت.

اليوم تنضم إحدى الجمعيات رحلة إلى دارٍ للأيتام، اتصلوا بي وأخبرتهم عن قبولي للدعوة، قمتُ بشراء بعض الهدايا، والألوان الجديدة للرسم، وذهبت إلى العنوان.

هذهِ زيارتي الثانية إلى الدار، أعرف معظم الأطفال الذين هناك، والعاملين أيضًا، قمتُ بالرسم على حائطٍ جديد تم بناءه في الدار، بعدها أقامت الجمعية احتفالًا لأحد الأطفال صادف يوم ميلاده، رقصنا لأجلهِ، واحضرنا له الحلوى وقالبًا من الكيك، انتهى الاحتفال، وتجولنا بالدار قليلًا، بعدها غادرنا، كانت الشمس قد أوشكت على الغروب.

عدت إلى البيت، تناولت الطعام بتعبٍ واضح، بعدها استلقيت على الكرسي في الشرفة، كنت اتصفح هاتفي، أثناء ذلك، اتصل بي الطبيب "مطر"، من رقمهِ الشخصي، هذا يعني أنه عاد إلى هنا مجددًا، ترددتُ بالإجابة، وقبل أن يُغلق، أجبت:

-مرحبًا.

*كيف حالكِ؟

-بخير.

*مضى وقتًا طويل.

-أجل، كيف حالكَ؟

*بخير، أريدُ رؤيتكِ، متى ستكونين متفرغة؟

-رؤيتي أنا؟ لماذا؟

*سأخبرك حين نلتقي، هل يناسبكِ غدًا؟

-حسنًا، أين؟

*سأرسل التفاصيل في رسالة، إلى ذلك الوقت انتبهي إلى نفسكِ.

-حسنًا.

قام بإرسال رسالة تحتوي العنوان والوقت، نهضت من الكرسي وأنا أرقص وأغني، دخلت إلى غرفتي فتحت خزانتي انظر إلى ملابسي، أرتدي هذا أم هذا، أم ذاك، هذا اللون أو هذا؟

دخلت أمي لتجدني أجلس في منتصف الملابس، وقد بدت الحيرة واضحة على ملامحي، سألتني بقلق:

*ما بكِ؟ أجننتِ؟

-ربما!

*ماذا هناك يا "غفران"؟

-لا شيء يدعو للقلق، سأخبركِ لاحقًا.

خرجت وأغلقت الباب وهي تصفق بيديها، وتردد لقد جنت ابنتي.

انتهيتُ من اختيار الملابس، وأعدت ترتيب الخزانة، والغرفة كلها، بعدها توقفتُ أمام المرآة، أحاول اختيار طريقةٍ لإلقاء التحية، وكيف أجلس، وماذا أقول، وكيف انظر؟

لم أشعر بنفسي كيف غفوت من شدة تعب هذا اليوم، وقد نسيتُ أن أضع المنبه، استيقظتُ في الصباح بكسل، امسكتُ هاتفي ونظرتُ إلى الساعة، وقد تجاوزت الحادية عشر صباحًا، يا إلهي سأتأخر، لا أملك سوى ساعةٍ ونصف، دخلتُ إلى دورة المياه حصلتُ على حمامٍ دافئ، وخرجتُ وبدأت بارتداء ملابسي، تارةً انظر الى نفسي في المرآة، وتارةً أراقب الساعة، إنها الثانية عشر ونصف، تبقى نصف ساعة، أسرعتُ أكثر، ودعتُ والدتي وخرجتُ مسرعة، أوقفت سيارة الأجرة، وانطلقنا إلى المكان.

وصلتُ في الموعد تمامًا، كان الطبيب بانتظاري، وصلتُ إلى حيث يجلس، وقفتُ أمامه وألقيتُ التحية، وبعدها جلسنا، كان ينظر إلى عينيّ مباشرةً، وكنتُ أنا أبادلهُ النظرات، وأخرى انظر إلى جهةٍ أخرى، سألني:

*كيف حالكِ؟

-بخير، ماذا عنك؟

*بخير.

-هل تزوجت؟

*لا.

-لماذا؟

*صديقتي التي تعرفني أكثر من أي شيءٍ أخر، كشفت أمري.

-ماذا كشفت؟

*أنني واقع بحب امرأة أخرى.

-هل أخبرتها؟

*ليس بعد؟

-ماذا تنتظر، ألم تقل بأن الوقت لا ينتظر أحد.

*وأنا هنا قبل أن يفوتني الوقت.

-لم أفهم.

*كيف اشرح لكِ بأنني وقعتُ في حبكِ من النظرة الأولى؟

-...

*حسنًا دعينا نبدأ منذ لقاءنا الأول.

-ما بهِ لقائنا الأول؟

*اللحظة التي دخلتي بها إلى الغرفة، اذكرها حتى الآن، طريقةُ مشيكِ، خجلكِ، خوفكِ وترددكِ.

-هل قرأت كل هذا؟

*لا تنسيّ أنني طبيب.

-حسنًا، ماذا بعد؟

*لا شيء، أثرتي إعجابي بكل ما بكِ.

بحركاتكِ الطفولية، صوت ضحكاتكِ الطفولي، خجلكِ كلما مدحتُ بكِ شيئًا، منذ أن ألتقيتُ بكِ وأنا أحمل صورتكِ بقلبي.

-لماذا أخفيت الأمر؟

*كان على كلانا أن يتأكد من شفائكِ من حادثة الزفاف، الفقد، كان عليكِ أولًا أن تتأكدي أن "زياد" لم يكن حبًا، ولن يكون، لقد كان الرجل الأول الذي طرق قلبكِ وفتح أبوابه لكنه لم يستطع أن يفعل أكثر من ذلك، لقد ضل واقفًا دون أن يكلف عناء نفسهِ بالدخول واكتشافك أكثر، وحمدًا لله أنه لم يفعل، وكان عليّ أنا أن أتأكد أن مشاعري نحوكِ حقيقة وليست بدافع الشفقة.

-كيف أدركت حقيقة مشاعرك؟

*لم يكن هناك شيئًا أتحدث به مع صديقتي وأمي، سواكِ.

-وهل هذا دليلًا كافيًا؟

*بالطبع لا، "رؤى" كانت على تواصلٍ مستمر معي، كنتُ أعرف اخباركِ عن طريقها، حتى حين كنتُ بالخارج، أخبرتني أنكِ قمتي بزيارتي في

العيادة، طلبتُ منها منذ البداية ألا تعرفين بتواصلنا معًا، أنا فقط لم أشأ أن افقدك، كنتُ أريد أن أراكِ بخير، وإن كنتِ بعيدة.

-ماذا الآن؟

*لا شيء، اتصلتُ بوالدكِ، طلبتُ منهُ موعدًا لزيارتكم هذا المساء، سنلتقي في الثامنة، وسنعقد القران.

-بهذهِ السرعة؟

*أجل، ألديكِ مانع؟

-لكن...!

*لا شيء يدعو للقلق يا "غفران"، سيكون لنا حياة جديدة معًا، سنصنع ذكرياتٍ جديدة بدل القديمة، أعدكِ أنني سأكون دومًا مصدر سعادةٍ لكِ، لا داعي للقلق، لا للخوف، ستضحكين دائمًا، ما دمتُ حيًا.

-ماذا عن الماضي؟

*لا يعنيني، ولن يعنيكِ بعد الآن، لقد كان مرحلة من العمر وانتهت، حدسي تجاهكِ لا يخطئ، تستحقين رجلًا يصنع قاموسًا في الحب لأجلكِ.

-أنا موافقة.

*حسنًا، سأوصلكِ الآن، ونلتقي مساءً.

-حسنًا.

وصلنا إلى البيت، دخلت إلى المنزل كان الجميع بانتظاري، عانقتُ أبي واخبرتهُ بالموافقة، بعدها عانقت والدتي، ثم إخوتي جمعيهن.

بدأت مظاهر الفرح تسكن الأرجاء، طلب أبي بعض الحلويات، بينما أمي بدأت بصنع بعضها في البيت، وأنا مع إخوتي في غرفتي يساعدنّي في

تحضير نفسي، هذه المرة لم تكن كالتي سبقتها، كان الفرح يصرخُ بصوتٍ أعلى، كان واضحًا في عيون عائلتي أكثر مني.

جاء الليل سريعًا، وصل "مطر" برفقة والدته ووالده والمأذون، قرأنا الفاتحة بعدها عقدنا القران.

قامت أمي وإخوتي بتوزيع الحلوى على الحضور، وقامت أمي بإرسال بعضها إلى الجيران.

بعدها طلب "مطر" أن نجلس معًا في الشرفة.

جلسنا، ثم امسك بيدي وقال، اتركي الخوف جانبًا، أنا هنا لأحميكِ، بقلبي بي كلي إن تطلب الأمر.

نظرتُ إليه وقلت:

- "يا مطرًا أمطر على قلبي فأزهر"

ثم أشرت إلى قلبي واكملت:

-"مرحبًا بك هنا، حيث تكون ديارك يا مطري".

تمت.

2023/3/19.

للتواصل:

Diana A Manaseer.

حتى جئت أنت، مرة تحبني وأخرى تكرهني، وإن لم تخبرني بهذا حقيقةً فكانت أفعالك معي تتحدث، لا تختلف عن صديقاتي من الابتدائية والثانوية، جميعكم تأمرتم على إيذائي، وجميعكم لم يفكر بماذا لو علمت "غفران" بالحقيقة، هل تعلم لماذا حدث كل هذا؟

*لماذا؟

ـ لأن لكلِ امرئٍ من اسمه نصيب، وأنا اسمي "غفران"، لكن يؤسفني جدًا، أن رصيدك من المغفرة والحب قد نفذ.

ديانا المناصير